

الكتاب الرابع

العصور المظلمة

١٠٩٥ - ٥٦٦

oboeikenda.com

الحوادث التاريخية في الكتاب الرابع

- ٤٨٦ - ٧٥١ : الأسرة المروغنجية في غالة .
- ٤٩٠ - ٥٤٣ : القديس بندكت .
- ٥٢٠ - ٥٦٠ : نشأة المجامع العلمية الأيرلندية .
- ٥٢١ - ٥٩٨ : القديس كولمبا .
- ٥٤٣ - ٦١٥ : القديس كولمبان .
- ٥٦٨ - ٧٧٤ : مملكة اللمبارد في إيطاليا .
- ٥٦٨ وما بعدها : تأسيس مدينة البندقية .
- ٥٨٢ - ٦٠٢ : موريق إمبراطوراً على الدولة الرومانية الشرقية .
- ٥٩٠ - ٦٠٤ : البابا جريجوري الأول العظيم .
- ٥٩٠ - ٦١٦ : إثلبرت ملك كنت .
- ٥٩٧ : أوغسطين ينشر المسيحية في إنجلترا .
- ٦٠٠ - ١١٠٠ : الترنيمية البحرية .
- ٦٠٢ - ٦١٠ : اعتصاب فوقاس .
- ٦١٠ - ٦٤١ : هرقل يجلس على عرش الدولة الشرقية .
- ٦٢٥ - ٦٩٠ : بولس الإيجيبي ، الطبيب .
- ٦٢٩ - ٦٣٨ : وجوبرت ملك الفرنجة .
- ٦٤٠ : الصقالبة يدخلون بلاد البلقان .
- جوالى ٦٥٠ : بيوولف ، كيدمون ، الشاعر .
- ٦٥١ : تأسيس أوتل ديبه (فندق الله) في باريس .
- ٦٧٣ - ٧٣٥ : بيد الموقر ، المؤرخ .
- ٦٨٠ - ٧٥٤ : بنيفاس ، رسول إلى ألمانيا .
- ٦٨٧ - ٧١٤ : بين الأصغر يحكم الفرنجة .
- ٦٩٧ : الدوج الأول في البندقية .
- ٧١٣ - ٧١٦ : أناستيوس الثاني إمبراطور الدولة الشرقية .
- ٧١٧ - ٧٤١ : ليو الثالث الإسوري ، إمبراطور الشرق .
- ٧٢٦ وما بعدها : حركة محطمي الصور في بيزنطية .
- ٧٣٥ : مدرسة يورك .
- ٧٣٥ - ٨٠٤ : الكوين ، المربي .
- ٧٥١ - ٧٦٨ : بين القصير يحكم الفرنجة .
- ٧٥١ - ٩٨٧ : أسرة كروندجيه من ملوك الفرنجة .
- ٧٥٦ : هبة بين تثبت قوة البابوات الزمنية .
- ٧٦٨ - ٨١٤ : شارلمان ملك الفرنجة .

- ٧٧٢ - ٨٠٤ : حروب شارلمان ضد السكسون .
٧٧٠ : شارلمان يضم تاج لمباردية .
٧٧٤ - ١٢٠٠ : الطراز الممارى الرومانى .
٧٧٦ - ٨٥٦ : رابانوس موروس ، المربى .
٧٧٨ : شارلمان فى اسبانيا ؛ رولان فى ونسفال .
٧٨٠ - ٧٩٠ : إيريتى وصية على العرش فى القسطنطينية .
٧٨٧ : الدنمقيون يبدؤون غاراتهم على إنجلترا .
٧٩٥ : الدنمقيون يبدؤون غاراتهم على أيرلندا .
٧٩٧ - ٨٠٢ : إيرينى « إمبراطور » الشرق .
٨٠٠ : البابا ليو الثالث يتوج شارلمان إمبراطوراً على الدولة الرومانية .
٨٠٢ : بلغاريا تحت حكم خان كروم .
٨١٣ - ٨٢٠ : ليو الخامس إمبراطور الشرق الأرمنى .
٨١٤ - ٨٤٠ : لويس الأول ملك الفرنجة التقى .
٨١٥ - ٨٧٧ : چون اسكوتس أرچينا ، الفيلسوف .
حوالى ٨٢٠ : الثرياجيون يدخلون روسيا .
٨٢٩ : إجبرت يؤسس الحكومة السباعية الإنجليزية السكونية ويصبح ملكاً على إنجلترا .
٨٢٩ - ٨٤٢ : ثيوفيلوس الأول إمبراطور الشرق .
٨٤١ - ٩٢٤ : غارات الشماليين على فرنسا .
٨٤٣ : تجزئة فردون ؛ لدفج يصبح أول ملوك ألمانيا .
٨٤٥ - ٨٨٢ : هنكار أسقف ريمس .
٨٤٨ وما بعدها : مدرسة سلرنو الطبية .
حوالى ٨٥٠ : كتاب كل ؛ ليو السالونيكى ؛ العالم الرياضى .
٨٥٢ - ٨٨٨ : بوريس الخان والقديس البلغارى .
٨٥٧ - ٨٩١ : فوتيوس بطريرق القسطنطينية .
٨٥٨ - ٨٦٧ : البابا نيقولاس الأول .
٨٥٩ : روريك أمير روسيا العظيم .
٨٦٠ - ٩٣٣ : هرلد هارفاجر أول ملوك النرويج .
٨٦٢ : الفنجاريون فى نوفجروود .
٨٦٣ : بعثة سيريل ومثودىوس إلى المورافيين .
٨٦٧ - ٨٨٦ : باسيل الأول يؤسس أسرة مقدونية .
٨٧١ - ٩٠١ : ألفرد الأكبر .
٨٧٢ : الشماليون يستعمرون أيسلندا .
٨٧٥ - ٨٧٧ : شارل الأصلىع ، إمبراطور الغرب .
٨٨٦ : الشماليون يحاصرون باريس .
٨٨٦ - ٩١٢ : ليو السادس الحكيم ، إمبراطور الغرب .

- ٨٨٧ وما بعدها : السجل الإنجليزي - السكسوني
٨٨٨ : أدو ملك فرنسا .
٨٩٣ - ٩٢٧ : سميون إمبراطور البلغار .
٨٩٩ - ٩٤٣ : المجر يميثون في أوروبا فساداً .
٩٠٥ : سانكو الأول يؤسس ملكة نبرة .
٩١٠ : تأسيس دير كلوني .
٩١١ : كتراد الأول ملك ألمانيا ، رولو دوق تورمندا .
٩١٢ - ٩٥٠ : قسطنطين السابع يورفيرو جنتيوس .
حوالي ٩١٧ : الديوان اليوناني .
٩١٩ - ٩٣٦ : هنري الأول الصياد ملك ألمانيا .
٩٢٥ - ٩٨٨ : القديس دنستان .
٩٢٨ - ٩٣٥ : قنسلاس الأول ملك بوهيميا .
٩٣٠ : تأسيس الألتنج الأيسلندي .
٩٣٤ - ٩٦٠ : هاكون الصالح ملك النرويج .
٩٣٦ - ٩٧٣ : أتو الأول ملك ألمانيا .
٩٥٠ : أوج الحضارة الأيرلندية في العصور الوسطى .
٩٥٥ : أتو يهزم المجر على وادي لك .
٩٦١ : دير القديس لافرا على جبل أئوس .
٩٦٢ : أتو الأول إمبراطوراً على الغرب .
٩٦٣ : أتو يخلع البابا يوحنا الثاني عشر .
٩٦٣ - ٩٦٩ : نقفور فوقاس إمبراطور الشرق .
٩٦٥ - ٩٩٥ : هاكون « الإيرل العظيم » ملك النرويج .
٩٦٨ : هرسويزا ، المؤلف المسرحي .
٩٧٣ - ٩٨٣ : أتو الثاني إمبراطور ألمانيا .
٩٧٥ - ١٠٣٥ : سانكو العظيم ملك نبرة .
٩٧٦ : معجم سريدياس .
٩٧٦ - ١٠١٤ : بريان يورمها ملك منستر .
٩٧٦ - ١٠٢٦ : باسيل الثاني إمبراطور الشرق .
٩٧٦ - ١٠٧١ : كنيسة القديس مرقس في البندقية .
٩٨٠ - ١٠١٥ : فلاديمير الأول ملك كييف .
٩٨٣ - ١٠٠٢ : أتو الثالث إمبراطور ألمانيا .
٩٨٧ - ٩٩٦ : هيوكايت يؤسس الأسرة الكايتية من ملوك فرنسا .
٩٨٩ : روسيا تعتنق المسيحية .
٩٩٢ - ١٠٢٥ : بولسلاف الأول أول ملوك بولندا .
٩٩٤ وما بعدها : الإصلاح الكلوني للأديرة .

- ٩٩٧ - ١٠٣٨ : القديس استيفن ملك المجر .
٩٩٩ - ١٠٠٣ : البابا سلفستر الثاني (جربرت) .
١٠٠٠ : ليف إركسون في « فنلندا » .
١٠٠٢ - ١٠٢٤ : هنري الثاني إمبراطور ألمانيا .
١٠٠٧ - ١٠٢٨ : فلبرت أسقف شارتر .
١٠٠٩ - ١٢٠٠ : الطراز الرومانسي الألماني .
١٠١٣ : سوين الدنمركي يفتح إنجلترا .
١٠١٤ : بريان بورمها يهزم الشماليين في كلنتارف .
١٠١٥ - ١٠٣٠ : القديس أولاف ملك النرويج .
١٠١٦ - ١٠٣٥ : كنوت ملك إنجلترا .
١٠١٨ - ١٠٨٠ : ميخائيل بسلوس ، المؤرخ .
١٠٢٢ - ١٠٨٧ : قسطنطين الأفريقي ، المترجم .
١٠٢٤ - ١٠٣٩ : كزاد الثاني إمبراطور ألمانيا .
١٠٢٨ - ١٠٥٠ : زوني وثيودورا يحكمان الدولة الشرقية .
١٠٢٣ - ١١٠٩ : القديس أنسلم .
١٠٣٤ - ١٠٤٠ : دنكان الأول ملك اسكتلندا .
١٠٣٥ - ١٠٤٧ : مجنوس الصالح ملك النرويج .
١٠٣٩ - ١٠٥٦ : هنري الثالث إمبراطور ألمانيا .
١٠٤٠ - ١٠٥٢ : ماكبث المغتصب ملك اسكتلندا .
١٠٤٠ - ١٠٩٩ : رديجو ديار السيد .
١٠٤٣ - ١٠٦٦ : إدورد المعترف ملك إنجلترا .
١٠٤٦ - ١٠٧١ : كنيسة القديس أمبروز في ميلان .
١٠٤٨ وما بعدها : دير چومبيج .
١٠٤٩ - ١٠٥٤ : البابا ليون التاسع .
١٠٥٢ : وفاة إيرل جدون ، السيامي .
١٠٥٤ : انفصال الكنيسة اليونانية عن الكنيسة الرومانية .
١٠٥٥ - ١٠٥٦ : ثيودورا إمبراطورة على الشرق .
١٠٥٦ - ١١٠٦ : هنري الرابع إمبراطور ألمانيا .
١٠٥٧ - ١٠٥٩ : إسحق كمينوس إمبراطور الشرق .
١٠٥٧ - ١٠٧٢ : بطرس دميان أسقف أستيا .
١٠٥٨ : ملكم الثالث ملك اسكتلندا يخلع مكبث .
١٠٥٩ - ١٠٦١ : البابا نقولاس الثاني ؛ تأسيس مجمع الكرادلة .
١٠٦٠ : ربرت جوسكارد دوق أبوليا .
١٠٦١ - ١٠٩١ : فتح النورمان لصقلية .

- ١٠٦٣ : الأمير هارولد يفتح ويلز .
١٠٦٣ وما بعدها : كنيسة بيزا اليرى .
١٠٦٦ : هارولد ملك إنجلترا ؛ واقعة هاستنجس ، فتح النورمان لإنجلترا .
١٠٧٣ - ١٠٨٥ : البابا جريجورى السابع هلدبراند .
١٠٧٥ : المرسوم المناهض لتولية غير رجال الدين ، حرمان هنرى الرابع .
١٠٧٧ : هنرى الرابع فى كَنُونَا .
١٠٨١ - ١١١٨ : ألكسيوس الأول إمبراطور الشرق .
١٠٨٥ : نهب ربرت جوسكارد لرومة .

الباب الثامن عشر

العالم البيزنطى

١٠٩٥ — ٥٦٥

الفصل الأول

هرقل

إذا حولنا الآن. نظرتنا من الجانب الشرقى للنزاع الدائم بين الشرق والغرب ، شعرنا من فورنا بالعطف على دولة عظيمة تنتابها محنتان فى وقت واحد : تمزقها الانقسامات فى الداخل ، وبيهاجها الأعداء من جميع الجهات فى الخارج . فقد كان الآقار والصقالبة يعبرون نهر الدانوب ويستولون على أراضى الإمبراطورية وبلدانها ؛ وكان الفرس يستعدون لاجتياح آسية الغربية ؛ وخسر القوط الغربيون أسبانيا ، واستولى للمبارد بعد ثلاث سنين من موت جستنيان على نصف إيطاليا (٥٦٨) . وفشا الطاعون فى جميع أنحاء الإمبراطورية فى عام ٥٤٢ وعاد إليها مرة أخرى فى عام ٥٦٦ ؛ وعمتها المجاعة فى عام ٥٦٩ ؛ وعطلت الحروب ، والهمجية ، والفقر ، وسائل الاتصال ، ووقفت فى سبيل التجارة ، وقضت على الآداب والفنون .

وكان خلفاء جستنيان أباطرة أولى قوة وكفاية ، ولكن المشاكل التى واجهتهم لم يكن فى وسع أحد أن يتغلب عليها إلا رجال من طراز نابليون يتلو بعضهم

بعضاً مدى قرن كامل دون انقطاع . وقاتل جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨)
الفرس الساعين إلى التوسع قتال الأبطال ؛ ولم تكد الآلهة تضمن على
تيبيريوس الثاني بكل ما لديها من الفضائل ، ولكنها اختصرته بعد حكم
عادل قصير . وهاجم موريق الآفار الغزاة بشجاعة ومهارة ، ولكنه لم يلق
من الأمة إلا قليلاً من التأيد ، فقد كان آلاف من أبنائها يدخلون الأديرة .
فراراً من الخدمة العسكرية ؛ ولما أن نهى موريق الأديرة عن قبول أعضاء
جدد فيها إلا بعد زوال الخطر عن الدولة نادى الرهبان بسقوطه . وتزعم
فوقاس الذي عمر مائة عام ثورة قام بها الجيش والعامّة على الأشراف
والحكومة (٦٠٢) ، وذبح أبناء موريق الخمسة أمام عينيه ؛ وأبى
الإمبراطور الشيخ على مربية أصغر أبنائه أن تنجيه من القتل بأن تستبدل
ابنها هي به ؛ فلما قطع رأسه علقت الرؤوس الستة لتتمتع بها أعين الشعب ،
وألقيت جثثهم في البحر . وذبحت الإمبراطورة قسطنطينة ، وبناتها
الثلاث ، وكثير من الأشراف ، وكان مقتلهم مصحوباً في العادة بضروب
من التعذيب ، بعد محاكمة أو بغير محاكمة ، فسمت أعينهم ، واقتلعت
أسنمتهم من أفواههم ، وبترت أطرافهم ، وارتكبت الفظائع التي تكررت
فيما بعد أثناء الثورة الفرنسية .

وأفاد كسرى الثاني من هذا الاضطراب ، وجدد الحرب القديمة حرب
الفرس واليونان ، وعقد فوقاس الصلح مع العرب ، ونقل الجيش البيزنطي كله
إلى آسية ؛ ولكن الفرس هزموه في كل واقعة التقوا به فيها ، واستولى الآفار
على جميع الأراضي الزراعية الواقعة خلف القسطنطينية إلا قليلاً منها ، دون أن
يلقوا مقاومة ، واستغاث أشراف العاصمة بهرقل إمبراطور أفريقية اليوناني ،
ودعوه لينقذ الإمبراطورية وينجي أملاكهم . لكنه اعتذر محتجاً بكبر سنه ،
وأرسل إليهم ابنه . وجهاز هرقل الأصغر عمارة بحرية ، جاء بها إلى البسفور ،

وخاع فوقاس ، وعرض جثة المغتصب المبتورة الأطراف أمام الشعب ،
ونودي به إمبراطوراً (٦١٠) . .

وكان هرقل خليفاً باسمه واقبه ، فقد شرع يعزيمة سميّه هرقل الأسطوري
بعيد تنظيم الدولة المحطمة ، وقضى عشر سنين يعمل لإحياء روح الشعب
المعنوية ، ويعيد قوة الجيش ، وينظم موارد الخزانة ، ووهب الأرض
للزراع على شريطة أن يؤدي أكبر أبناء الأسرة الخدمة العسكرية . وفي
هذه الأثناء استولى الفرس على أورشليم (٦١٤) ، وتقدموا إلى خلقدون
(٦١٥) ؛ ولم ينقذ عاصمة الدولة وأوروبا إلا الأسطول البيزنطي . ولم يمض
بعد ذلك إلا قليل حتى زحفت جمافل الآفار على القرن الذهبي ، وأغاروا
على أرباض العاصمة ، وقبضوا على آلاف من اليونان واتخذوهم أرقاء .
وكانت نتيجة خسارة الأراضي الحصبة الواقعة خلف القسطنطينية مضافة إلى
خسارة مصر أن انقطعت واردات الحبوب عن المدينة ، وأرغمت الحكومة
على قطع إعانات الغذاء عن الأهلين (٦١٨) ، وفكر هرقل في يأس أن
ينقل جيشه إلى قرطاجنة ، وأن يحاول منه الاسترجاع مصر . ولكن الأهلين
والقساوسة منعوه من المسير ، ورضى البطريق سرجيوس أن يقرضه ثروة
الكنيسة اليونانية بفائدة ، ليمول بها حرباً مقدسة يستعيد بها أورشليم (٣) .
ولهذا تصالح هرقل مع الآفار ثم زحف آخر الأمر لقتال الفرس .

وكانت الحروب التي أعقبت هذا الزحف آيات في التفكير والتنفيذ . فقد
واصل هرقل الحرب على أعدائه ست سنوات ، هزم فيها كسرى عدة مرار ،
وحاصر في أثناء غيابه جيش من الفرس ، وجحافل من الآفار ، والباغار والصقالبة
مدينة القسطنطينية (٦٢٦) ؛ فسير هرقل جيشاً هزم الفرس في خلقدون ،
ومزقت حامية العاصمة وعامتها بتحريض البطريق جحافل البرابرة . ودق هرقل
أبواب طيسفون ، وسقط كسرى الثاني ، وطلبت فارس الصلح ، وردت

كل ما كان كسرى قد استولى عليه من الإمبراطورية اليونانية ، وعاد هرقل ظافراً إلى القسطنطينية بعد أن غاب عنها سبع سنين .
ولم يكن هرقل خليفاً بمصيره الذي جعله العار في سن الشيخوخة . فبينما هو يبذل ما بقي لديه من نشاط في إصلاح شئون الإدارة بعد أن هذ المرض قواه إذ انقضت قبائل العرب على بلاد الشام (٦٣٤) ، وهزمت جيشاً يونانياً منهوك القوى ، واستولت على بيت المقدس (٦٣٨) ، ثم استولت على مصر بينما كان الإمبراطور يعاني سكرات الموت (٦٤١) . وكانت فارس وبيزنطية قد جرت كلتاها الحراب على الأخرى بحروبها العوان . وواصل العرب انتصاراتهم في أيام قنسطانس Constans الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨) ؛ وظن قنسطانس أن لا نجاة للإمبراطورية ، فقضى آخر سنى حياته في الغرب ثم قتل في سرقوسة . وكان ابنه قسطنطين الرابع بجنونوتس Pogonotus أقدر منه أو أسعد حظاً . ولما أن حاول المسلمون مرة أخرى في خلال السنين الخمس الحاسمة (٦٧٣ - ٦٧٨) أن يستولوا على القسطنطينية أنقذت أوربا « النار الإغريقية » التي ورد ذكرها وقتئذ لأول مرة . وكان هذا السلاح الجديد ، الذي يعزى اختراعه إلى كلسنوس Calcinus السورى من نوع قاذفات اللهب المستخدمة في هذه الأيام ، فهو مزيج حارق من النفط ، والجير الحى ، والكبريت ، والزفت ، يلتقى على سفن العدو أو جيوشه في سهام ملتهبة ، أو يصب عليها من أنابيب ، أو يقذف في صورة كرات من الحديد مغطاة بالكتمان ونسأله المغموسة في الزيت ، أو يوضع في قوارب صغيرة وتشعل وتوجه إلى العدو . وأفلحت الحكومة البيزنطية في الاحتفاظ بسر هذا المزيج مدى قرنين من الزمان ، وكان إفشاؤه يعد خيانة للوطن وإثماً دينياً ؛ غير أن المسلمين كشفوا آخر الأمر هذا السر ، واستخدموا « النار الإسلامية » في حرب الصليبيين . وظل هذا السلاح أكثر ما يتحدث عنه الناس في العصور الوسطى في العالم كله إلى أن اخترع البارود .

وهاجم المسلمون العاصمة اليونانية مرة أخرى في عام ٧١٧ ، فعبر جيش من العرب والفرس عدته ثمانون ألف مقاتل بقيادة مسلمة مضيق البسفور عند أبيدوس وحاصر القسطنطينية من خلفها . ثم جهز العرب في الوقت نفسه عمارة بحرية مؤلفة من ألف وثمانمائة سفينة ، كانت على ما نظن من السفن الصغيرة ، ودخلت هذه العمارة البحرية البسفور ، وكانت تظلل المضيق ، على حد قول أحد الإنجليبيين ، كأنها غابة متحركة . وكان من حسن حظ اليونان وقتئذ أن جلس على عرش الإمبراطورية في هذه الأزمة ، بدل ثيودوسيوس **Theodosius** الثالث الضعيف العاجز ، قائد محنك هو ليو « الإيسوري » **Leo The Isaurian** ، وشرع ينظم وسائل الدفاع ، فوزع قطع الأسطول البيزنطي بمهارة وحنكة ، وتأكد من أن كل سفينة قد زودت بكفايتها من النار الإغريقية ؛ فلم يمض إلا قليل من الوقت حتى اشتعلت النار في كل سفينة من سفن العرب ، فلم تكده تبقى على واحدة منها . ثم هجم الجيش اليوناني على المحاصرين ، وانتصر عليهم نصراً حاسماً ارتد المسلمون على أثره إلى بلاد الشام .

الفصل الثاني

محطمو الصور والتماثيل الدينية

يستمد ليو الثالث لقبه من إقليم إسوريا Isauris في قليقية ؛ ويقول ثيوفان Theophanes إنه ولد في هذا الإقليم من أبوين أرمنيين ؛ ثم انتقل والده من هناك إلى تراقية ، وأخذ يربي الضأن ، وأرسل منها خمسمائة رأس مصحوبة بابنه ليو هدية منه إلى الإمبراطور جستنيان الثاني . وأصبح ليو فيما بعد جندياً في حرس القصر ، ثم قائداً لقبلى الأناضول ، ثم اختاره الجيش إمبراطوراً ، والجيش كما لا يخفى لا يرد له اختيار ؛ وكان ليو رجلاً طموحاً ، قوى الإرادة ، مثابراً ، صبوراً ؛ وكان قبل اختياره للجلوس على العرش قد هزم عدة مرار جيوشاً إسلامية تفوق جيوشه ؛ كما كان بعد ذلك سياسياً محنكاً ، وهب الإمبراطورية الاستقرار الناشئ من التطبيق العادل للقوانين العادلة ، وأصلح نظام الضرائب ، وخفض من أعباء رقيق الأرض ، ووسع نطاق الملكية الزراعية ، ووزع الأراضي على الفلاحين ، وعمر الأقاليم المهجورة ، وأعاد النظر في القوانين ، ووضعها على أساس إنشائي حكيم ، ولم يكن يعيبه إلا سلطانه الأوتوقراطي .

ولعله قد تشبعت نفسه وهو في صباه بأسية بفكرة رواقية متزمتة عن الدين سرت إليه من المسلمين ، واليهود ، والمانيين ، واليعاقبة ، ومن تعاليم القديس بولس ، وكماها تدمعكوف جمهرة المسيحيين على عبادة الصور والتماثيل ، والحرص الشديد على المراسم والطقوس ، والاعتقاد بالخرافات . ولقد نهى العهد القديم في صراحة تامة (الآية الخامسة عشرة من الأصحاح الرابع من سفر التثنية) المؤمنين على أن يضعوا : « تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى شبه هيمة ما مما على الأرض ... الخ » . وكانت الكنيسة في أول أمرها تكره الصور والتماثيل

وتعدها بقايا من الوثنية ، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة . ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر في القسطنطينية والشرق الهلنستي ، كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية . ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين ، نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم ؛ فظهرت لهم وللمريم العذراء كثير من الصور . ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحسب ، بل عظموا معها خشبة الصليب - حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوى العقول الساذجة طلسمًا ذا قوة سحرية عجيبة . وأطلق الشعب العنان لفظرته فحول الآثار ، والصور ، والتماثيل المقدسة ، إلى معبودات ، يسجد الناس لها ، ويقبلونها ، ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ، ويتوجونها بالأزهار ، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي . وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص ، كنت ترى الصور المقدسة ، في كل مكان - في الكنائس ، والأديرة ، والمنازل ، والخوانيت - ، وحتى أثاث المنازل ، والحلى ، والملابس نفسها لم تخل منها . وأخذت المدن التي تهددها أخطار الوباء ، أو المجاعة ، أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار اللتينية أو على من فيها من الأولياء والقديسين بدل أن تعتمد على الجهود البشرية للنجاة من هذه الكوارث ، وكم من مرة نادى آباء الكنيسة ، ونادت مجالسها ، بأن الصور ليست آلهة ، بل هي تذكر بها فحسب^(٤) ، ولكن الشعب لم يكن يأبه بهذه التفرقة .

وغضب ليو الثالث من هذا الإفراط في التدين من جانب الشعب . ونخيل إليه أن الوثنية أخذت تغزو المسيحية وتتغلب عليها من جديد بهذه الوسيلة ، وحز في نفسه ما كان يوجهه المسلمون ، واليهود ، والشيع المسيحية المنشقة من المطاعن للخرافات السائدة عند جماهير المسيحيين المتمسكين بدينهم . وأراد أن يضعف من سلطان الأساقفة على الشعب والحكومة ، ويضمن تأييد النساطرة ، واليعاقبة ،

فقد مجلساً من الأساقفة ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، وأذاع بموافقهم في عام ٧٢٦ مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ، وحرّم تصوير المسيح والعذراء ، وأمر بأن يغطى بالجص ما على جدران الكنائس من صور . وأيد بعض كبار رجال الدين هذا المرسوم ، ولكن للرهبان وصغار القساوسة احتجاجاً عليه ، وثار عليه الشعب ، وهاجم المصلون الجنود الذين حاولوا تنفيذ القانون بالقوة ، لأنهم قد روعهم وأثار غضبهم هذا التدنيس المتعمد لأعز رموز دينهم . ونادت قوات الثوار في بلاد اليونان وخلقيدية بإمبراطور آخر ، وسيرت أسطولا ليستولى على العاصمة . ودمر ليو هذا الأسطول ، وزج زعماء معارضيهِ في السجون ، وفي إيطاليا ، التي لم تمنح منها في يوم من الأيام أساليب العبادات الوثنية ، أجمع الشعب كله تقريباً على معارضة المرسوم ، وطردت مدائن البندقية ، ورافنا ، ورومة عمال الإمبراطورية ، واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا جريجوري الثاني وضب اللعنة على محطى الصور والتماثيل المقدسة دون أن يذكر اسم الإمبراطور . وانضم بطريق القسطنطينية إلى الثائرين ، وحاول بانضمامه إليهم أن يعيد إلى الكنيسة الشرقية استقلالها عن الدولة ، فما كان من ليو إلا أن خلعه من منصبه (٧٣٠) ، ولكنه لم يعتد عليه ، وبلغ من رافة الإمبراطور في تنفيذ المرسوم أن ظلت معظم الكنائس إلى يوم وفاته في عام ٧٤١ تحتفظ بمظلماتها وفسيفسائها سليمة .

وسار ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) على نهجه ولقبه المؤرخون المعادون له بذلك اللقب الظريف « كبرونيموس Copronymus » (المشتق من الدبال) . وجمع الإمبراطور الجديد مجلساً من أساقفة الشرق في القسطنطينية (٧٥٤) ، حرّم عبادة الصور والتماثيل ، ووصفها بأنها عمل « ممقوت » ، وقال إن « الشيطان قد أعاد عبادة الأوثان إلى سابق عهدها عن طريق عبادتها » . ولعن « الفنان الجاهل الذي يشكل بيديه النجستين ما لا يصح أن يؤمن

به الناس إلا بملوهم» (٥) ، وأمر بأن يحى أو يدمر كل ما فى الكنائس من صور وتماثيل . ونفذ قسطنطين هذا القرار بلا كياسة أو اعتدال ، فسجن من قاومه من الرهبان أو سلط عليهم ألوان العذاب ، فسملت الأعين ، واقتلعت الألسنة ، وجدعت الأنوف مرة أخرى ، وعذب البطريق وقطع رأسه (٧٦٧) . وفعل قسطنطين الخامس ما فعله هنرى الثامن فيما بعد ، فأغلق أديرة الرهبان والراهبات ، وصادر أموالها ، وحول مبانيها إلى أغراض غير دينية ، ووزع أرضها على محاسبيه . وجمع عامل الإمبراطورية فى إفسوس ، بموافقة الإمبراطور ، رهبان الولاية وراهباتها ، وأرغم الرهبان على أن يتزوجوا الراهبات وإلا قتلهم جميعاً (٦) . وظل هذا الاضطهاد يجرى فى مجراه خمس سنين (٧٦٣ - ٧٧١) .

وأرغم قسطنطين ابنه ليو الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠) على أن يقسم بالجرى على خطة تحطيم الصور والتماثيل السالفة الذكر . وفعل ليو ما مكنته من فعله بنيتته الضميعة ؛ ولما حضرته الوفاة اختار ابنه قسطنطين السادس البالغ من العمر عشر سنين إمبراطوراً (٧٨٠ - ٧٩٧) ، ورشح أرملته إيريني وصية على العرش حتى يبلغ ولده القاصر سن الرشد . وحكمت إيريني الإمبراطورية بمهارة وقوة مجردة من الضمير . وكانت تعطف على مشاعر الشعب الدينية وعلى بنات جنسها ، فأنتهت فى هدوء عهد تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والأصنام ، وسمحت للرهبان أن يعودوا إلى أديرتهم ومنابرهم ، ودعت رجال الدين فى العالم المسيحى إلى مجمع نيقية الثانى (٧٨٧) ، حيث أعاد ٣٥٠ من الأساقفة ، بزعامة مندوبى البابا ، تعظيم الصور المقدسة - لا عبادتها - وقالوا إنها تعبير مشروع عن التقى والإيمان المسيحيين .

وبلغ قسطنطين السادس سن الرشد فى عام ٧٩٠ ؛ ولما رأى أن أمه لا ترغب فى أن تتخلى له عن سلطتها خلعها ونفاها من البلاد وسرعان ما ندم هذا الشاب الظريف على فعلته ، فأعادها إلى بلاطه ، وأشركها معه فى حكم

الإمبراطورية (٧٩٢) ؛ فلما كان عام ٧٩٧ عملت على سجنه وفقء عينيه ، ثم حكمت الدولة بعدئذ بوصفها « إمبراطوراً » لا إمبراطورة . وظلت خمس سنين تصرف شؤون الإمبراطورية بحكمة ودهاء ، فخفضت الضرائب ، ووزعت الهبات على الفقراء ، وأنشأت المؤسسات الخيرية ، وجمعت العاصمة . وأحبها الشعب ورحب بها ، ولكن الجيش قد ساءه أن تحكمه امرأة أقدر من معظم الرجال . وخرج عليها في عام ٨٠٢ مخطو الصور والتماثيل ، وخلعوها ، ونادوا بتقفور وزير ماليتها إمبراطوراً . واستسلمت إيريني لمصيرها في هدوء ، ولم تطلب إلى الإمبراطور أكثر من ملجأ أمين يليق بمقامها ، فوعدها أن يجيب طلبها ، ولاكنه نفاها إلى لسبوس ، وتركها تكسب قوتها القليل بالاشتغال بالحياطة حتى ماتت بعد تسعة أشهر من ذلك الوقت ، لا تكاد تجد درهماً أو صديقاً . وعفا رجال الدين عن جرائمها لتقواها ، ورفعها الكنيسة إلى مقام القديسين .

الفصل الثالث

نظرة عامة في أحوال الإمبراطورية

٨٠٢ - ١٠٥٧

إذا أردنا أن نلقى نظرة شاملة على الحضارة البيزنطية نقدرها بها تقديراً صادقاً تطلب منا ذلك أن نلم بتاريخ كثير من الأباطرة وبعض الإمبراطورات - ولسنا نقصد بذلك ما دبروه ودبرته من دسائس القصور، والثورات، والاضغاثات، بل نقصد سياستهم، وتشريعاتهم، وجهودهم الطويلة لحماية الإمبراطورية المتناقصة الرقعة من هجمات المسلمين في الجنوب، والصقالبة والبلغار في الشمال. وتمثل هذه الصورة من بعض نواحيها البطولة الصادقة: فقد حافظت الإمبراطورية خلال صروف تاريخها، وتقلباته، ومن ظهر على عرشها ومن اختفى عنه من أشخاص، على القسط الأكبر من التراث اليوناني: احتفظت بالنظام الاقتصادي ثابتاً متصلاً، وظلت الحضارة قائمة كأن من ورائها دافعاً قوياً غير منقطع من الجهود القديمة ليركيز وأغسطس، ودقلديانوس وقسطنطين. هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فهي صورة مؤسسية لقواد يرقون إلى السلطة الإمبراطورية على أشلاء منافسهم، ثم لا يلبثون أن يقتلوا مثلهم، ولمظاهر الأبهة والترف، والعيون المسمولة، والأنوف المجدوعة، والبخور والتقى والغدر، ومن أباطرة وبطارقة لا ضمير لهم يناضلون ليقرروا هل تحكّم الإمبراطورية القوة أو الأساطير، السيف أو الكلام. وهكذا نمر بنقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١) وحروبه مع هارون الرشيد، وميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣) وقد ثل عرشه وجز شعره لأن البلغار هزموه، وليو الخامس الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠) الذي حرم مرة أخرى عبادة الصور والتماثيل والذي اغتيل وهو ينشد ترنيمة للكنيسة، وميخائيل

الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩) الأمي « المتلجلج » الذي عشق راهبة وحمل مجلس الشيوخ على أن يتوسل إليه أن يتزوجها^(٧) ، وثيوفيلس (٨٢٩ - ٨٤٢) المشرع المصلح ، والملك البناء ، والإداري الحى الضمير الذي أحيا سنة اضطهاد محطى التماثيل وقضى عليه الزحار ، وأرملته ثيودورا التي حكمت البلاد نيابة عنه حكما قديراً (٨٤٢ - ٨٥٦) وأنهت عهد الاضطهاد ، وميخائيل الثالث « السكّير » (٨٤٢ - ٨٦٧) الذي أسلم الإمبراطورية بعجزه اللطيف إلى أمه أولاً ثم إلى قيصر بارداس Caesar Bardas عمه المثقف القدير بعد وفاتها . ثم تظهر على المسرح على حين غفلة شخصية فذة لم تكن منتظرة تخرج على كل سابقة عدا سابقة العنف ، وتؤسس الأسرة المقدونية القوية .

فقد ولد باسيل المقدوني (٨٦٢ ؟) بالقرب من هدريانوبل Hadriaople من أسرة أرمنية من الزراع . وأسرّه البلغار وهو صغير وقضى شبابه بينهم وراء الدانوب في البلاد التي كانت وقتئذ معروفة باسم مقدونية . ثم فر منهم وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، واتخذ سبيله إلى القسطنطينية ، واستأجره أحد رجال السياسة ليكون سائسا لخيوله لأنه أعجب بقوة جسمه وضخامة رأسه . وصحب سيده في بعثة إلى بلاد اليونان ، وهناك استلقت نظر الأرملة دنيليس Danielis وحصل على بعض ثروتها . ولما رجع إلى العاصمة روض جوادا جموحا يملكه ميخائيل الثالث ، فأدخله الإمبراطور في خدمته ، وظل يرتقى فيها حتى صار رئيس التشريعات وإن لم يكن يعرف القراءة والكتابة . وكان باسيل على الدوام قديراً فيما يوكل إليه من الأعمال ، سريع الاستجابة لها ؛ فلما أن طلب ميخائيل زوجا لعشيقتة ، طلق باسيل زوجته القروية ، وأرسلها إلى تراقية مع بائنة طيبة ، وتزوج يودوسيا Eudocia التي ظلت في خدمة الإمبراطور . وهكذا حبا ميخائيل باسيل بعشيقتة ، ولكن المقدوني ظن أنه يستحق العرش جزاء له على فعلته ، فأقنع ميخائيل بأن يارداس يأتمر به ليخلعه ، ثم قتل يارداس بيديه الضخمتين (٨٦٦) ، وكان

مبخائيل قد اعتاد من زمن طويل أن يملك دون أن يحكم فجعل باسيل
إمبراطوراً وترك له جميع شؤون الحكم . ولما هدده ميخائيل بعزاه ،
دبر باسيل اغتياله وأشرف على هذا الاغتيال بنفسه ، وانفرد هو
بالإمبراطورية (٨٦٧) . وهكذا كانت المناصب مفتحة الأبواب لذوى
الكفاية حتى في عهد الملكيات الوراثة المطلقة ، وهكذا أنشأ ابن الفلاح
الأمي غير المثقف بتدليله وجرائمه أطول الأسر الحاكمة البيزنطية عهداً ، وبدأ
حكماً دام تسع عشرة سنة امتاز بالإدارة الحازمة ، والقوانين الصالحة ،
والقضاء العادل ، والحزارة الغاصة بالمال ، وبنناء الكنائس والقصور الجديدة
في المدينة التي استولى عليها . ولم يكن أحد يجرؤ على معارضته ؛ ولما أن
مات بسبب حادث وقع له أثناء الصيد ، انتقل الملك من بعده بهدوء غير
معهود إلى ولده .

وكان ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢) مكمل لما في أبيه من نقص : كان
متعلماً ، كثير القراءة ، ميالاً لعدم الحركة ، دمث الأخلاق ؛ ويقول
الثرثارون المغتابون إنه كان ابن ميخائيل لا ابن باسيل ، ولعل يودوسيا
نفسها لم تكن متأكدة من أبوته . ولم يكسب لنفسه لقب « الحكيم »
بشعره ولا برسالاته في الدين ، والإدارة ، والحرب ، بل كسبه بإعادته
تنظيم شؤون الحكم الإقليمي والكنسي ، وصياغة القوانين البيزنطية ،
وتنظيمه الدقيق للصناعة . ومع أنه كان تلميذاً للطريق العالم فوتيوس
Photius معجباً به ، وكان هو نفسه نحاشماً تقياً ، فقد هز مشاعر
رجال الدين ، وسلى الشعب ، بأربع زيجات ، ماتت منها الأوليان
دون أن تنجبا أبناء ؛ وأصر ليو على أن يكون له واد لأن هذا هو السبيل
الوحيد لوقاية الدولة من حرب الوراثة ، وحرمت المبادئ الأخلاقية الدينية
للكنيسة الزواج الثالث ، وأصر ليو على رأيه ، وتزوجت زوى Zoe زوجته
الرابعة لإصراره بولد .

وسمى قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٨) البرفيروجنتس - « المولود

الأرجون» - أى فى الشقة المبطنة بالبرفيرى المخصصة لأن تستخدمها الإمبراطورات الحاملات . وقد ورث عن أبيه ذوقه الأدبى ، ولكنه لم يرث عنه كفايته الإدارية . وألف لأبنته كتابين فى فن الحكم : أحدهما فى ولايات الدولة وثانيهما كتاب فى الامتقانات يصف فيه ما يطلب إلى الإمبراطور من المراسم وآداب اللياقة . وأشرف على جمع مؤلفات فى الزراعة ، والطب ، والطب البيطرى ، وعلم الحيوان ، ووضع « تاريخا للعالم مستمدا من المؤرخين » بجمع مختارات من كتب المؤرخين والإخباريين ، وازدهرت الآداب البيزنطية بفضل تشجيعه ومناصرته ، ولكنه كان ازدهار على طريقتهما المصقولة الهزيلة .

وربما كان رومانوس الثانى (٩٥٨ - ٩٦٣) كغيره من الأطفال يقرأ كتب أبيه . وقد تزوج بفتاة يونانية تدعى ثيوفانو Theophano ؛ وظن أنها دست السم لحميها وعجلت موت رومانوس ؛ وقبل أن يموت زوجها البالغ من العمر أربعاً وعشرين سنة أغوت إلى أحضانها القائد الزاهد نقفور الثانى فوقاس ، واغتصب القائد العرش وغضبت هى النظر عن ذلك الاغتصاب . وكان نقفور قد أخرج المسلمين من حلب وإقريطش (كريت) (٩٦١) ؛ ثم أخرجهم من قبرص فى عام ٩٦٥ ، ومن أنطاكية فى عام ٩٦٨ ؛ وكانت هذه الانتصارات هى التى زلزلت أركان الخلافة العباسية . وطلب نقفور إلى البطريق أن يعد كل من يقتلون من الجنود فى حرب المسلمين بكل ما يوعد به الشهداء من جزاء وتكريم ؛ واكن البابا لم يجبه إلى طلبه بحجة أن جميع الجنود قد دنسوا من قبل بما أراقوه من الدماء ؛ ولو أنه فعل لكان محتملا أن تبدأ الحروب الصليبية قبل بدايتها الحقيقية بمائة عام . وفقد نقفور مطامعه وآوى إلى قصره ليعيش فيه معيشة المتعبدين الزاهدين . وتضايقت ثيوفانو من هذه الحياة الشبيهة بحياة الأديرة فاتخذت لها خليلا القائد تزميسيس Tzimisce . وقتل هذا القائد نقفور (٩٦٩) واستولى

بعد قتله على العرش وغضت النظر عن هذا الجرم ، ولكن القاتل ندم على فعلته ، ونبذ خليلته ، ونفاها من البلاد ، وخرج هو ليكفر عن جرائمه بانتصارات وقتية غير حاسمة على المسلمين والصقالبة .

وكان الإمبراطور الذي خلفه على العرش من أقوى الشخصيات في تاريخ بيزنطية . وقد ولد باسيل الثاني لرومانوس وثيوفانو في عام ٩٥٨ ، وكان إمبراطوراً بالاشتراك مع نقفور فوقاس وتزيمبسيس ؛ ثم بدأ (٩٧٦) وهو في الثامنة عشرة من عمره حكماً منفرداً دام خمسين عاماً . واكتنفته في بداية حكمه المتاعب من كل جانب : فأخذ كبير وزرائه يأتمر به ليغتصب عرشه ، وأمد سادة الإقطاع الذين اعتزم أن يفرض عليهم الضرائب المتأمرين عليه بالمال ، وخرج عليه بارداس اسكلروس Badas قائد جيش الشرق ، فأحمد بارداس فوقاس ثورته ، ثم عمل هذا القائد المنتصر على أن يختاره جنوده إمبراطوراً ؛ وكان المسلمون وقتئذ يستردون معظم ما استولى عليه منهم تزيمبسيس في بلاد الشام ، وبلغت قوة البلغار أوجها ، وأخذوا يعتدون على بلاد الإمبراطورية من الشرق والغرب . وقلم باسيل أظفار الفتنة ، واسترد أرمينية من المسلمين ، وحطم قوة البلغار بعد حرب طاحنة دامت ثلاثين عاماً . وبعد أن تم له النصر على البلغار في عام ١٠١٤ وسمل عيون ١٥٠٠٠ أسير ، ولم يترك إلا عينا واحدة لكل مائة واحد منهم ليقود هذه الجموع المنكودة في عودتها إلى صمويل قيصر البلغار ؛ وأطلق عليه اليونان اسم قاتل البلغار (بلغاراكتوروس Bulgaroctonus) ولعل ذلك كان منهم رهبة له لا إعجاباً به . ووجد بين هذه الحروب وقتاً يشن فيه حرباً شعواء على « الذين أثروا على حساب الفقراء » . فحاول بما سنه من القوانين في عام ٩٩٦ أن يجزئ بعض الضياع الكبيرة ويشجع انتشار الفلاحين الأحرار . وكان يوشك أن يقود حملة بحرية على المسلمين في صقلية حين وافته المنية فجاءة وهو في الثامنة والستين من عمره . ولم تبلغ الإمبراطورية منذ أيام هرقل ما بلغته في

في أيامه من السعة ، ولم يكن لها منذ عهد جستنيان مثل ما كان لها في عهده من الفوة .

ودب الضعف مرة أخرى في جسم الإمبراطورية في عهد أخيه الشيخ قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨) . ولم يكن لقسطنطين هذا من الأبناء إلا ثلاث بنات ، فأقنع رومانوس أرجيروس Romanus Argyros أن يتزوج زوى Zoe كبراهن ، وكانت سنها وقتئذ تقرب من الخمسين . وحاكت زوى بمساعدة أختها ثيودورا الدولة بوصفها نائبة عن الإمبراطور طوال عهد رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) ، وميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤٢) ، وميخائيل الخامس (١٠٤٢) ، وقسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٥) ؛ ولم تشهد الإمبراطورية قبل أيامها حكماً أصحح من حكمها . فقد شنت الأختان حرباً شعواء على الفساد في الدولة والكنيسة ، وأرغمتا الموظفين على أن يردوا ما اغتصبوه من الأموال ؛ ومن هؤلاء واحد كان رئيس وزراء رد إلى الدولة ٥٣٠٠ رطل من الذهب (٢٢٦٠٠٠ ر ٢ ريال أمريكي) كان قد خبأها في حوض ماء ؛ ولما أن مات البطريق ألكسيس Alexis ، وُجد في حجراته مخبأً يحتوي مائة ألف رطل من الفضة (٢٧٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي)^(٩) . ووقف بيع المناصب الحكومية فترة قصيرة ، وجلست الأختان زوى وثيودورا قاضيتين في أعلى محكمة في الدولة ، ووزعتا العدالة الصارمة بالقسطاس المستقيم . ولم يكن أحد يضارع زوى في نزاهتها ؛ من ذلك أنها لما تزوجت قسطنطين التاسع وهي الثانية والستين من عمرها ، وكانت تعرف أن براعتها في تزيين نفسها بالأصباغ لا تكاد تحتفظ لها إلا بالشيء القليل من جمالها الظاهري ، سمحت لزوجها الجديد أن يأتي بعشيقته اسكارينا لتعيش معه في القصر الإمبراطوري . واختار الإمبراطور حجراته بين حجراتهما ، ولم تكن زوى تزوره قط إلا بعد أن تتأكد أنه بمفرده^(١٠) . ولما ماتت زوى (١٠٥٠) آوت ثيودورا إلى دير للراهبات ؛

وحكم قسطنطين التاسع بعد ذلك خمس سنين راعى فيها الحكمة وسلامة الذوق ، فاختر لمعاونته رجلا من ذوى الكفاية والثقافة ، وأعاد تجميل كنيسة أياصوفيا ، وشاد المستشفيات والملاجئ للفقراء ، وناصر الآداب والفنون . ولما مات (١٠٥٥) تزعم أنصار الأسرة المقدونية ثورة شعبية أخرجت العذراء ثيودورا من مأواها فى الدير ، وتوجتها على الرغم منها إمبراطورة . وحكمت مع وزرائها الدولة حكماً صالحاً حازماً على الرغم من أنها كانت وقتئذ فى الرابعة والسبعين من عمرها ؛ ولكنها ماتت فى عام ١٠٥٦ مئة مفاجئة ، وضربت الفوضى على أثر موتها أطنابها فى البلاد ، فنادى الأشراف بميخائيل السادس إمبراطوراً ، ولكن الجيش فضل عليه القائد إسحق كمينوس ، وكانت معركة واحدة كافية لحسم النزاع ، فترهب ميخائيل ، ودخل كمينوس العاصمة فى عام ١٠٥٧ إمبراطوراً . وهكذا قضى على الأسرة المقدونية بعد حكم دام مائة وتسعين عاماً ، كان قوامه العنف ، والحرب ، والزنى ، والتقى ، والإدارة الممتازة .

واعزل إسحق كمينوس الملك بعد عامين ، ورشح خلفاً له قسطنطين دوкас Constantine Ducas ، وآوى هو إلى دير ؛ ولما تولى قسطنطين (١٠٦٧) حكمت أرملة يودوسيا الدولة أربع سنين بوصفها إمبراطورة بالنيابة ، ولكن مطالب الحرب كانت تحتاج إلى قائد أعظم منها قوة ، وأشد حزمًا ، ولهذا تزوجت رومانوس الرابع وتوجته إمبراطوراً . وهزم الأتراك رومانوس عند ملازكرت (١٠٧١) ، فعاد إلى القسطنطينية بجلاء العار ؛ ثم خلع ، وسجن ، وسملت عيناه ، وترك ليموت من جروحه التى لم يعن بها أحد . ولما جلس على العرش كمينوس الأول (١٠٨١) ابن أخى إسحق كمينوس نبيل إلى العالم أن الإمبراطورية البيزنطية موشكة على الانهيار ، فقد استولى الأتراك على بيت المقدس (١٠٧٦) وأخذوا يزحفون على آسية الصغرى ، وكانت قبائل البتزيناك Patzinak والكومان Cuman تقرب من القسطنطينية من الشمال ، والنورمان يهاجمون

الحصون البيزنطية الأمامية في البحر الأدرياتي . وكان الجيش والحكومة
يفت في عضدهما الخيانة ، والعجز ، والفساد ، والجن . وواجه
ألكسيوس ذلك الموقف بشجاعة ودهاء ، فوجه عملاءه إلى إيطاليا الخاضعة
للنورمان ليثيروا فيها الفتن ؛ ومنح البندقية ميزات تجارية على أن تعينه
بأسطولها على النورمان ، وصادر كنوز الكنيسة ليعيد بها إنشاء الجيش ،
ونزل إلى ميدان القتال بنفسه ، وانتصر في عدة معارك بفضل مهارته في
الفنون الحربية لا بما سفكه من الدماء ، ووجد بين هذه المشاغل الخارجية
وقتا استطاع أن يعيد فيه تنظيم الدولة ووسائل الدفاع عنها ، ووهب بهذا
كله الإمبراطورية المتداعية حياة دامت مائة عام أخرى . فلما كان عام ١٠٩٥
لجأ إلى حيلة دبلوماسية بارعة كان لها أثر بعيد . ذلك أنه استغاث بالغرب
لمساعدة الشرق المسيحي ؛ وعرض في مجلس بياسنزا أن تعود الكنيسة
اليونانية واللاتينية إلى الاتحاد نظير اتحاد أوروبا ضد المسلمين ؛ وكانت هذه
الاستغاثة هي وغيرها من العوامل التي أطلقت أولى تلك الحروب المسرحية
المعروفة بالحروب الصليبية ، والتي قدر لها أن تنقذ بيزنطية ثم تقضى آخر
الأمر عليها .

الفصل الرابع

الحياة في بيزنطية (٥٦٦ - ١٠٩٥)

وصلت الإمبراطورية اليونانية مرة أخرى في بداية القرن الحادى عشر إلى ما كانت عليه من القوة والثروة والثقافة في أوج مجدها أيام جستنيان ، وذلك بفضل ما كان للأسرتين الإسورية والمقدونية من قوة حربية وحنكة سياسية ، فانتزعت من المسلمين آسية الصغرى ، وبلاد الشام الشمالية ، وقبرص ، وروُدس ، وخلقيدية ، وإقريطش (كريت) ؛ وعاد جنوبي إيطاليا فأصبح بلاد اليونان الكبرى Magna Grecia تحكمه القسطنطينية ، واستردت بلاد البلقان من البلغار والصقالبة ، وسيطرت التجارة والصناعة البيزنطيتان مرة أخرى على أسواق بلاد البحر المتوسط ، وانتصر المذهب المسيحى اليونانى فى البلقان والروسيا ، وأخذ الفن والأدب اليونانيان يستمتعان بنهضة مقدونية جديدة ، وبلغ إيراد الدولة فى القرن الثالث عشر ما يوازى ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ ر ٢ دولار من نقود هذه الأيام (١١) .

وكانت القسطنطينية نفسها فى أوج عزاها ، تفوق رومة القديمة والإسكندرية ، وتضارع بغداد وقرطبة المعاصرتين لها فى التجارة والثروة ، والترف والجمال ، والرقعة والفن . وكان معظم سكانها البالغ عددهم نحو مليون من الأنفس (١٢) من الآسيويين والصقالبة - الأرمن ، والكپدوكيين ، والسوريين ، واليهود ، والبلغار ، واليونان أنصاف الصقالبة ، يمتزج بهم ويلونهم تجار وجنود من الإسكنديناويين ، والروس ، والطلليان ، والمسلمين ؛ وتغشيم طبقة رقيقة من الأشراف اليونان . وكان فى داخل الإطار الخارجى المكون نصفه من الذهب ونصفه من الوحل ، والذي تدور فيه الحياة المنتجة الحصبية فى العاصمة البيزنطية

ألف نوع ونوع من المنازل - ذات السقوف الهرمية والسطوح أو القباب - ذات شرفات ، وبوائك ، وحدائق أو عرائش ؛ وأسواق خاصة بحاصلات العالم كله ، وألف شارع وشارع ضيق موحل تحف به المساكن والحوانيت ، وكثير من الشوارع الواسعة تكتنفها القصور الفخمة ، والأروقة الظليلة ، مليئة بالتماثيل تتخللها أقواس النصر ؛ وتتصل المدينة بالريف من خلال أبواب محروسة في أسوار حصينة ؛ وقصور ملكية معقدة كقصر ثيوفيلس ذى الثلاثة الأجنحة ، وقصر باسيل الأول الحديد ، وقصر نقفور فوقاس الريفى المؤدى بدرج من الرخام إلى رصيف تقوم عليه التماثيل على شاطئ بحر مرمره ؛ وكنائس « بعدد ما فى السنة من أيام » كما يقول أحد الرحالة ، بعضها تحف فنية غاية فى الإبداع ، ومذابح تضم أئمن ما فى العالم المسيحى من مخلفات وأكثرها تعظيماً وإجلالاً ؛ وأدبرة لا يستحى من فيها من فخامة مظهرها ، تضطرب من داخلها بالقدسين ذوى الكبرياء ، وكنيسة أياصوفيا التى نجد زينتها على الدوام ، تتلأأ فيها الشموع والمصابيح ، مثقلة بالبخور ، رائعة المناظر المهيبة ، تتردد فى جنباتها الترانيم الرنانة التى لا تترك شكاً فى النفوس .

وكان فى داخل قصور الأشراف وكبار التجار بالمدينة ، وبيوت الريف المقامة فى مؤخرتها على شاطئ البحر ، كل ما يستطيع ذلك العصر أن يصل إليه من مظاهر الترف والزينة التى لا تحرمها العادات والتقاليد السامية : رخام من كل صنف ولون ، وصور على الجدران وفسيفساء ، وتماثيل وخزف جميل ، وسجف تنزلق على عصى من الفضة ، وأقشة مضمورة على الجدران ، وطنافس ، وحرائر ، وأبواب مطعمة بالفضة والعاج ، وصحاف من الفضة والذهب ؛ فى هذه البيئة يتحرك المجتمع البيزنطى ، رجال ونساء حسان الوجه والقوام ، عليهن أثواب من الفراء والحريير الجميل اللون الموشى بالخرمات ، لا ينقصن فى رشاقتن ، ومغامراتن الحبية ، ودسائسهن عن أهل باريس وفرساي فى عهد آل بوربون . ولم تعرف

النساء قبل ذلك العهد مساحيق أهى أو عطوراً أذكى أو جواهر أثنى أو تصفيفاً للشعر أجمل مما عرفته نساء ذلك العصر . وكانت النار تبقى متقدة في القصور الإمبراطورية طوال أيام العام لتطبخ عليها العطور التي يتطلبها تعطير الملكات والأميرات (١٣) . ولم تكن الحياة في أى وقت من الأوقات السابقة أكثر زينة وأشد تكلفاً ، وأكثر حفلات ، واستقبالات ، ومناظر ، وألعاباً ، واستمساكاً بالمراسم ، وأشد مراعاة لآداب اللياقة منها في ذلك الوقت . وكان الأرستقراط المتأصلون في أرستقراطيتهم إذا خرجوا إلى مضمار السباق ، أو وجدوا في بلاط الإمبراطور ، يتباهون بأثوابهم الجميلة ، وإذا ساروا في الطرق العامة اندفعوا بعرباتهم الفخمة لا يباليون بالراجلين الفقراء فكسبوا بذلك عداوتهم ؛ وقد بلغوا من الأبهة ما استحقوا من أجله لعنة رجال الدين الذين كانوا يخدمون الله في آنية وعلى مذابح من الرخام ، والمرمر ، والفضة ، والذهب . ويقول ربرت الكلارى Robert of Clari إن القسطنطينية في ذلك الوقت كانت تحتوى على « ثلثي ثروة العالم كله » ؛ « وحتى العامة أنفسهم » كما يقول بنيمين التطلّى « من السكان اليونان وكأنهم كلهم أبناء ملوك » (١٥) .

ووصفها أحد كتاب القرن الثانى عشر فقال : « إذا كانت القسطنطينية تفوق سائر المدن في ثرائها ، فإنها تفوق هذه المدن أيضاً في رذائلها » (١٦) . ذلك أن جميع رذائل المدن الكبرى قد وجدت لها مكاناً فيها بين أغنيائها وفقرائها على السواء . فالقسوة الوحشية والتقوى كانتا تتبادلان الاستحواذ على نفوس الأباطرة ، وفي نفوس العامة كان يمكن التوفيق بين الحاجة الشديدة إلى الدين ومفاسد السياسة والحرب أو عنفهما ، وظل إخصاء الأطفال لاتخاذهم خصياناً في بيوت الحرم وأعمال الإدارة ، واغتيال المطالبين بالعرش أو الذين يخشى أن يكونوا مطالبين به أو سمل عيونهم ، ظلت هذه الجرائم تسير سيرها خلال حكم الأسر المختلفة ، وخلال التغيرات الرتيبة المملة التي لا تنقطع . وكانت جماهير

الشعب التي أفسدت نظامها وسخرتها الانتمسات العنصرية ، والطائفية ،
والدينية ، كانت هذه الجماهير متقلبة لا يقر لها قرار ، متعطشة للدماء ،
تضطرب وتثور من آن إلى آن ، ترشوها الدولة بوجبات الطعام
المكونة من الخبز والزيت والحمر بلا ثمن ؛ ويسليها سباق الخيل ،
ومصارعة الوحوش ، والرقص على الحبال ، والتمثيلات الصامتة الفاحشة
البدئية في الملاهي ، والمراكب الإمبراطورية أو الكنسية في الشوارع . وكانت
قاعات الميسر لا يخلو منها مكان ، وتكاد بيوت العاهرات توجد في كل شارع ،
بل كانت في بعض الأحيان « تلاصق أبواب الكنائس » (١٧) . واشتهرت
نساء بيزنطية بدعارتهن وورعهن ، كما اشتهر رجالها بحدة الذكاء والطموح
والتجرد من الضمير . وكانت كل الطبقات من سكانها تؤمن بالسحر ،
والتنجيم ، والتنبؤ بالغيب ، والعرافة ، والاتصال بالشياطين ، والتأم ذات
القوة المعجزة . وكانت الفضائل الرومانية القديمة قد اختفت حتى قبل
اختفاء اللغة اللاتينية . وقضى على الصفات الرومانية واليونانية سيل من
الشرقيين فقدوا هم أيضاً مبادئهم الأخلاقية ، ولم يستعوضوا عنها إلا بالألفاظ
الجوفاء . ومع هذا فإن الكثرة الغالبة من الرجال والنساء في هذا المجتمع
المتطرف في دينه وشهوته كانوا مواطنين ومؤدبين وآباء محتشمين يسكنون
بعدد هو الشباب إلى حياة الأسر وما فيها من متع وأحزان ، ويؤدون الأعمال
الدينيوية وهم كارهون . وهؤلاء الأباطرة الذين كانوا يسملون عيون منافسيهم
يغدقون الصدقات على المستشفيات وملاجئ الأيتام ، والمعجزة ، ونزل
المسافرين المجانية (١٨) . وكانت طبقة الأشراف ، التي ينحيل إلى الناس أن
الترف والراحة ديدنها وشغلها شاغل كل يوم ، نضم مئات من الرجال
يتبلون على أعمال الإدارة والسياسة بغيرة يختلط بها الطمع في الكسب
والإنشاء ، واستطاعوا بطريقة ما ، وبالرغم مما يتعرضون له من الانقلابات
وما يحاك حولهم من الدسائس ، أن ينقذوا الدولة من كل كارثة تلم بها ، وأن

يقيموا فيها نظاماً اقتصادياً أغدق عليها من الرخاء أكثر ما شهده العالم المسيحي في العصور الوسطى .

وكانت البيروقراطية التي أنشأها دقلديانوس وقسطنطين قد صارت في مدى سبعة قرون أداة قوية فعالة في إدارة شئون الحكم ؛ وصلت إلى كل إقليم من أقاليم الدولة . وكان هرقل قد استعاض عن تقسيم الدولة القديم إلى ولايات تقسيمها إلى وحدات عسكرية على رأسها حاكم عسكري (استراتيجوس Strategos) ، وكان هذا التقسيم وسيلة من مائة وسيلة عدلت بها الأنظمة البيزنطية لمواجهة الغزو الإسلامي . واحتفظت الوحدات الجديدة بقسط كبير من الحكم الذاتي وعمها الرخاء تحت إشراف الإدارة المركزية ، فقد حباها هذا النوع من الحكم استمراراً في النظام دون أن يلقى على كاهلها العبء المباشر للنزاع والعنف اللذين كانت تضطرب بهما العاصمة ؛ فبينما كانت العاصمة يحكمها الإمبراطور والبطريق ، والغوغاء ، كانت الوحدات العسكرية يحكمها القانون البيزنطي . وبينما كانت البلاد الإسلامية توحد بين القانون والدين ، وبينما كان غرب أوروبا يتعثر في فوضى عدد كبير من قوانين القبائل الممجيية ، كان العالم البيزنطي يعرض بالنواجذ على تراث جستنيان ويوسع نطاقه ؛ فكانت قوانين جستين الثاني Justin II وهرقل « الجديدة » ، والقوانين « المختارة » التي سنّها ليو الثالث ، والمراسيم الملكية التي نشرها ليو السادس ، وقوانين هذا الإمبراطور الجديدة الأخرى ، كانت كل هذه قد كتبت مجموعات قوانين جستنيان كى تتفق مع الحاجات المتغيرة لقرون خمسة . ووهبت كتب القوانين العسكرية ، والكنسية ، والبحرية ، والتجارية ، والريفية ، الأحكام القضائية في الجيش والكنيسة ، والأسواق والثغور ، والضياح ، والبحار ، نظاماً وثقة بين الناس ، وجعلتها خليقة بأن يعتمد عليها ؛ وكانت مدرسة القانون في القسطنطينية في القرن الحادى عشر المركز الثقافى للشئون غير الدينية في العالم المسيحي . وهكذا احتفظ البيزنطيون بأعظم ما وهبته لهم رومة - ألا وهو

القانون الروماني - خلال ألف عام من الأخطار والتغيرات ، حتى إذا ما بعث بعثاً جديداً في بولونيا Bologna في القرن الثاني عشر أحدث انقلاباً عظيماً في القانون المدني لأوروبا اللاتينية والقانون الكنسي للكنيسة الرومانية . وكان القانون البحري البيزنطي الذي سنه ليو الثالث والمستمد من الأنظمة البحرية لروندس القديمة أول مجموعة من القوانين التجارية في العالم المسيحي في العصور الوسطى ؛ وقد أصبح في القرن الحادي عشر مصدراً لقوانين أخرى من نوعه في جمهوريتي تراني Trani وأملفي Amalfi الإيطاليتين ، ومن هذا الطريق سرى إلى التراث القانوني في عالمنا الحاضر .

أما القانون الريفي فكان محاولة صادقة جدية بالشثناء للوقوف في وجه الإقطاع وإنشاء طبقة من الفلاحين الأحرار . فقد وهب هذا القانون قطعاً صغيرة من الأرض إلى الجنود المتقاعدين ؛ وكانت أرض واسعة من أملاك الدولة يزرعها الجنند على أن يكون عملهم فيها نوعاً من الخدمة العسكرية ، وكانت مساحات واسعة تزرعها الطوائف الخارجة على الدين المنقولة من آسية إلى تراقية وبلاد اليونان . وكانت أقاليم أوسع رقعة من هذه وتلك تستقر فيها جماعات البرابرة ، ترغمهم على ذلك الحكومة أو تبسط حمايتها عليهم لأنها ترى أن وجودهم في داخل الإمبراطورية أقل خطورة من وجودهم في خارجها ؛ وعلى هذا النحو استقر القوط في تراقية وإليريا ، واللمبارد في بانونيا ، والصقالبة في تراقية ومقدونية وبلاد اليونان ؛ ولم يستهل القرن الحادي عشر حتى كان الجنس الصقلبي هو الجنس الغالب في البلو يونيز ، وحتى كثر عدد الصقالبة في أتكا وتسالينا . وتعاونت الدولة والكنيسة على إنقاص عدد الأرقاء ؛ فحرمت الشرائع الإمبراطورية بيع الأرقاء الذين يتضمون إلى الجيش أو رجال الدين أو يتزوجون من شخص حر . وكان عمل العبيد في القسطنطينية مقصوراً في الواقع على العمل في المنازل ، أما في غيرها من المدن فكانت تجارة الرقيق رائجة .

بيد أن من قوانين التاريخ الصادقة الأكيدة التي لا تكاد تفق عن قانون نيوتن في الجاذبية أن الملكيات الزراعية الكبيرة كلما تقاربت واتسعت رقعتها اجتذبت إليها الملكيات الصغيرة ، وأنها بعد فترات من الزمن تجمع هذه الملكيات الصغيرة إلى ضياع كبيرة عن طريق الشراء أو غيره من الطرق ؛ ثم لا يلبث هذا التركيز على مر الزمن أن يتفجر ، فتوزع الأرض مرة أخرى عن طريق الضرائب أو الثورة ، ثم تبدأ عملية التركيز من جديد . ولقد كانت معظم الأراضي الزراعية في بلاد الشرق البيزنطية ضياعاً واسعة يمتلكها كبار الملاك المعروفون باسم الديناتوى dynatoi أي « الرجال الأقوياء » ، أو الكنائس ، أو الأديرة ، أو المستشفيات التي ينفق عليها من أرضين أوصى بها إليها الأتقياء الصالحون من الناس . وكانت هذه الأراضي يفلحها رقيق الأرض ، أو فلاحون أحرار من الوجهة القانونية ، ولكنهم مكبلون بالأغلال من الناحية الاقتصادية . وكان ملاك الأرض تحيط بهم بطانة من الموالى ، والجراس ، وعبيد المنازل ، ويحيون حياة الترف المنعم في بيوت الريف أو قصور المدن . وترى ما في حياة أولئك الملاك من خير وشرف في قصة السيدة دنييلس Danielis محسنة باسيل الأول . ذلك أنها حين جاءت لزيارته في القسطنطينية كان ثلثائة من العبيد يتناوبون على حمل هودجها الذي جاءت فيه من بتراس Patras . وحملت معها لمحبوبها الإمبراطوري هدايا أثمن مما بعث به ملك من الملوك إلى الإمبراطور البيزنطي : منها أربعائة شاب ، ومائة خصى ، ومائة عذراء . ومنها أربعائة قطعة من النسيج المنقوش نقشاً فنياً ، ومائة قطعة أخرى من التيل الرفيع (تبلغ كل منها من الرقة درجة تسمح لها بأن توضع في عقلة غاب) ، ومجموعة من صحاف المائدة مصنوعة من الفضة والذهب . وقد تحلت هذه السيدة في أثناء حياتها عن كثير من ثروتها ، فلما دنت منيتها أوصت بما بقي لديها منها إلى ابن باسيل ، ووجد لبو السادس أنه قد وُهب ثمانين بيتاً ومزرعة في الريف ، وأكداساً من النقود

والجواهر والصحاف والأثاث الثمين ، والمذسوجات الغالية ، وما لا يحصى من الماشية ، وآلافاً من العبيد^(١٩) .

ولم يكن الأباطرة يسرون كل السرور بهذه الهدايا اليونانية ؛ ذلك بأن هذا الثراء المجتمع من لحوم ملايين الناس ودمائهم كان يكسب أصحابه سلطاناً ، وأنهم إذا اجتمعوا كانوا خطراً شديداً على أى ملك أو إمبراطور . ولهذا كان الأباطرة يعملون بدافع مصالحهم الشخصية وحب الإنسانية على وقف تركيز الثروة على هذا النحو . من ذلك أن شتاء ٩٢٧ - ٩٢٨ القارس قد أعقبه قحط ووباء ، فباع الفلاحون أرضهم إلى كبار الملاك بأثمان منخفضة إلى أقصى حد ، ومنهم من تخلى عنها نظير لقمة العيش . ولهذا أصدر رومانوس نائب الإمبراطور « مرسوماً جديداً » يندد فيه بالملاك ويصفهم بأنهم « أظهروا أنهم أشد قسوة من القحط والوباء » ؛ وطالبهم بأن يردوا كل الأملاك التي ابتاعوها من أصحابها بأقل من نصف « الثمن الجزئى » ؛ وأجاز لكل من باع أرضه أن يشتري في خلال ثلاث سنين ما باعه منها بالثمن الذى باعه به ، ولكن هذا المرسوم لم تكن له نتيجة تستحق الذكر ؛ وظل تركيز الملكية يجرى في مجراه ، و زاد الطين بلة أن كثيرين من الفلاحين اضطرتهم الضرائب الباهظة إلى بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن - إلى القسطنطينية إن استطاعوا - وإلى المعيشة من الإعانات الحكومية . وجدد باسيل الثانى النضال بين الأباطرة والأعيان ، فأصدر في عام ٩٩٦ مرسوماً يبيح للبائع أن يستعيد في أى وقت ما باعه من الأرض بالثمن الذى باعه به ؛ وألغى عقود الأراضى التي استولى عليها الملاك بطريقة تخالف قانون عام ٩٣٤ ، وأمر بأن تعود هذه الأراضى من فورها إلى ملاكها السابقين ومن غير ثمن . واستطاعت كثرة الملاك أن تحتال على التملص من هذه القوانين ، ونشأ من ذلك في الشرق البيزنطى في أزمنة غير متصلة ، قبل بداية القرن الحادى عشر ، نظام معدل من أنظمة الإقطاع . لكن جهود الأباطرة لم تذهب

كلها أدراج الرياح ، ذلك أن من بقوا من الزارع الأحرار مدفوعين بغريزة التملك قد غطوا الأرض بالمزارع ، والبساتين ، والكروم ، والمناحل ، والمراعى ، ونشأت في ضياع كبار الملاك الزراعة العلمية إلى أقصى ما وصلت إليه في العصور الوسطى ، وكان تقدم الزراعة البيزنطية بين القرن الثامن والقرن الحادى عشر يضارع تقدم الصناعة في تلك البلاد .

واصبغت الإمبراطورية الشرقية في ذلك العصر بصبغة حضرية نصف صناعية تختلف كل الاختلاف عن الصبغة الريفية الغالبة على أوروبا اللاتينية الواقعة في شمال جبال الألب ، فكان عمال المناجم وصناع المعادن يعملون يجد في الكشف عن مناجم الرصاص ، والحديد ، والنحاس ، والذهب واستغلالها . وكانت القسطنطينية ومائة مدينة غيرها - أزمير ، وطرسوس ، وإفسوس ، ودورزو ، وراجوسا ، وپتراس ، وكورنثة ، وطيبة ، وسلانيك ، وهدريانوبل ، وهرقلية ، وسليميريا - تتردد فيها أصوات دابغى الجلود ، وصانعى الأحذية ، والسروج ، والأسلحة والصياغ ، وصناع الحلى ، وطارقى المعادن ، والنجارين ، والحفارين على الخشب ، وصانعى العجلات ، والخبازين ، والصبانين ، والنساجين ، والفخرايين ، وصانعى الفسيفساء ، والنقاشين . وكانت القسطنطينية ، وبغداد ، وقرطبة ، في القرن التاسع مراكز للصناعة والتبادل التجارى تكاد تضارع في سرعة حركتها وجنونها أية حاضرة من الحواضر في هذه الأيام . وظلت العاصمة اليونانية ، بالرغم من المنافسة الفارسية تزعم العالم الأبيض في إنتاج المنسوجات الرفيعة والحريرية ، ويلبها في هذا أرجوس ، وكورنثة ، وطيبة . ونظمت صناعة النسيج أحسن تنظيم ، وكانت تستخدم كثيراً من العبيد ، أما غيرها من الصناعات فكانت تستخدم صناعاتاً أحراراً . وكان صعاليك القسطنطينية وسلانيك يحسون

بسوء حالهم ، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يوثفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد ، محبة للكسب ، متصدقة ، مجدة ، ذكية ، محافظة أشد المحافظة . وانتظمت الصناعات الكبرى بصناعاتها ، وفنانيها ، ومديريها ، وتجارها ، ومحاميها ، ورجال مالها في جماعات نقابية - سستاماتا Sytemata - تحدت من الجماعات القديمة المعروفة بالكوليجيا والأرتيس ، وتشبه الوحدات الاقتصادية الكبيرة في الدول الحديثة ذات الصناعات الجماعية . وكانت كل جماعة نقابية منها تحتكر عملاً من الأعمال يتفق مع تكوينها ، ولكنها كانت مقيدة أشد التقييد بأنظمة خاصة بمشترياتها ، وبأثمانها ، وأساليب صناعاتها ، وشروط البيع ، وكان مفتشون حكوميون يراقبون أعمالها وحساباتها ، وكانت القوانين في بعض الأحيان تحدد أقصى الأجور . أما الصناعات الصغرى فكانت تُترك للصناع الأحرار وللنشاط الفردي . وقد أفادت الصناعة البيزنطية من هذا نظاماً ، ورخاء ، واتصالاً ، ولكن نظامها حال دون الابتكار والاختراع ، ومال بها إلى الجمود وركود الحياة (٢٠) .

وكانت الحكومة تشجع التجارة بتعويضها ، وبمراقبة الأهوسة ، والمواني ، وتنظيم التأمينات والقروض بضمان السفن ، وتشن حرباً شعواء على القرصنة ، وكانت العملة البيزنطية أكثر عملات أوروبا ثباتاً . وكان للحكومة البيزنطية إشراف واسع شامل متغلغل في جميع الأعمال التجارية - فكانت تحرم تصدير بعض المواد والسلع ، وتحتكر تجارة الحبوب والحرير ، وتفرض عوائد على الصادرات والواردات ، وضرائب على المبيعات (٢١) . وكادت هي تدعو غيرها من الدول إلى أن تحل محلها في سيادتها التجارية القديمة على بحريجة والبحر الأسود بسماحها إلى التجار الأجانب - الأرمن ، والسوريين ، والمصريين ، والألمانيين والبيزيين ، والبنادقة ، والجنوبيين ، واليهود ، والروس ، والقطلانيين - بنقل

معظم بضائعها هي ، وبإنشاء وكالات شبه مستقلة في العاصمة أو بالقرب منها : وكان الربا مباحاً ، ولكن القانون كان يحدد سعر الفائدة باثني عشر أو عشرة ، أو ثمانية عشر في المائة ، أو بأقل من ذلك في بعض الأحيان . وكان رجال المصارف كثيرى العدد ، ولعل المرابين في القسطنطينية لا المرابين الطليان هم الذين أوجدوا نظام السفاتج القابلة للتحويل (٢٢) ، ووضعوا أوسع نظام للائتمان عرفه العالم المسيحي قبل القرن الثالث عشر .

الفصل الخامس

النهضة البيزنطية

ونشأ من كدح الشعب وخذقه ، ومن أموال الأغنياء الزائدة على حاجتهم ، إحياء عجيب للآداب والفنون في القرنين التاسع والعاشر . ذلك أن الدولة وإن ظلت إلى آخر أيام حياتها تسمى نفسها الدولة الرومانية ، فإن ما فيها من العناصر اللاتينية إلا القليل منها كان قد اختفى كله تقريباً ما عدا القانون الروماني . فأضحت اللغة اليونانية في الشرق البيزنطي من أيام هرقل هي لغة الحكومة ، والأدب ، والشعائر الدينية ، ولغة الحديث اليومي . وأصبح التعليم كله يونانياً ، وكان كل حر من الذكور ، وكثير من النساء ، بل وكثير من الأرقاء ، يتلقى قدرأ ما من التعليم ، وأحيا قيصر بارداس Caesar Baradas (٨٦٣) جامعة القسطنطينية التي تركت لتضمحل وتموت ، كما تركت الآداب بوجه عام ، خلال ما حدث من الأزمات في عهد هرقل ، وذاعت شهرة هذه الجامعة بما كانت تدرسه من المناهج في فقه اللغة ، والفلسفة ، وعلوم الدين ، والهيئة ، والرياضة ، والأحياء ، والموسيقى ، والآداب ، وحتى ليبانيوس الوثني ولوشيان الكافر كانا متعزمين . وكان التعليم في العادة من غير أجر للطلاب ذوي المؤهلات ، وكانت الدولة تتكفل بمرتبات المدرسين . وكثرت في البلاد دور الكتب العامة والخاصة ، وظلت تحتفظ بروائع المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة التي جر عليها النسيان ذيوله في الغرب المضطرب .

وكان انتقال التراث اليوناني في هذا النطاق الواسع منها للعقول ومقيداً لها معاً . فقد كان من جهة مقوباً للتفكير وموسعاً لمدها ، ومشجعاً على الخروج من

أساليب البلاغة الوعظية الرتيبة القديمة ، والجدل الديني . ولكن ثراءه نفسه كان عائقاً له من الابتكار ، لأن الابتكار أيسر على الجاهل منه على المتعلم . وكان أهم ما تهدف إليه الآداب البيزنطية أن توأم النساء المثقفات ذوات الفراغ ؛ والرجال المثقفين الذين لا يعملون . وكانت هذه الآداب هلنستية لا يونانية ؛ ولهذا كانت تطفو على ظاهر الحياة البشرية ولا تتعمق إلى قلبها . وقد اقتصر التفكير بتأثير العادات التي كسبها في مراحلها الأولى على دائرة المتمسكين بالدين القويم ، وكان محطمو الصور والتماثيل الدينية أتقى من القساوسة وإن كان رجال الكنيسة في ذلك العهد شديدي التسامح إلى حد عجيب .

وشهدت الإسكندرية عصرًا آخر من عصور النهضة العلمية شبيها بعصرها القديم أخذ فيه العلماء يحللون اللغة ، ويبحثون ويلخصون في علم العروض ، ويؤلفون الكتب المجملية ، والتواريخ العالمية ، ويجمعون المعاجم والموسوعات والدواوين . ففيه (٩١٧) جمع قسطنطين كفالاس Constantine Cephalas الديوان اليوناني . وفيه (٩٧٦) جمع سويداس معجمه الكبير الغزير المادة . وألف ثيوفانيس (حوالي ٨١٤) وليو الشماس (المولود في عام ٩٥٠) تاريخين قيمين لأيامهما والأيام القريبة منها ، وألف بولس الإيجيني Paul of Aegina (٨١٥ - ٨٩٠) ، وسوعة في الطب جمعت بين نظريات المسلمين وتجاربهم وبين ما خلفه للعالم جالينوس وأرباسيوس Oribasius ، وتتحدث بلغة تكاد تشبه لغة هذه الأيام عن جراحات لسرطان القلب ، وعن البواسير ، وعن قنطرة المثانة ، واستخراج الحصاة منها ، والإخصاء ؛ ويقول بولس إن الإخصاء كان يحدث بطحن خصيتي الأطفال في حمام حار (٢٣) .

وكان أعظم العلماء البيزنطيين في هذه القرون الثلاثة معلماً خامل الذكر معدماً يدعى ليو السلانيكي (حوالي ٨٥٠) ، لم تأبه القسطنطينية لوجوده حتى دعاه أحد الخلفاء إلى بغداد . ذلك أن أحد تلاميذه أسره المسلمون في حرب من

الحروب وأصبح عبداً لأحد عظماء المسلمين ، وسرعان ما دهش هذا العظيم من علم هذا الشاب بالهندسة . وعرف المأمون خبره فأغراه بالاشتراك في نقاش مسائل هندسية في قصره . وأعجب الخليفة بعلمه ، واستمع بشغف عظيم إلى ما قاله عن معلمه ، وأرسل من فوره يدعو ليو إلى بغداد وإلى الثراء والجاه . واستشار ليو في ذلك موظفاً بيزنطياً ، ثم استشار هذا الموظف الإمبراطور ، ثيوفيلس ، فأسرع هذا إلى تعيين ليو أستاذاً . وكان ليو ملماً بكثير من العلوم فكان يؤلف في الرياضة والهيئة ، والتنجيم ، والطب ، والفلسفة ويعلمها . وعرض عليه المأمون عدة مسائل في الهندسة والهيئة وسرّ من إجابته عنها سروراً جعله يعرض على ثيوفيلس صلحاً أبدياً وألني رطل من الذهب إذ أعاره ليو إلى أجل قصير . ورفض ثيوفيلس هذا العرض وعين ليو كبيراً لأساقفة سلانيك لكي يبعده عن تناول يد المأمون (٢٤) .

وكان ليو ، وفوتئوس Photius ، وپسلوس Psellus كواكب ذلك العصر المنيرة . فأما فوتئوس (٨٢٠ ؟ - ٨٩١) أعلم أهل زمانه فقد ارتقى في خلال ستة أيام من رجل عادي إلى بطريق ، فكان بذلك من رجال التاريخ الديني ، وأما ميخائيل بسلوس (١٠١٨ ؟ - ١٠٨٠) فكان من رجال هذا العالم ومن حاشية الإمبراطور ، مستشاراً للملوك والملكات ، وكان فلتير عصره إلا أنه كان دمث الأخلاق مستمسكاً بالدين ، في وسعه أن يهر الناس في كل موضوع ؛ ولكنه كان يرسو على قرار مكين بعد كل نقاش ديني وكل ثورة في القصر . ولم يكن يسمح بحبه الكتب أن يطغى على حبه الحياة ؛ وكان يعلم الفلسفة في جامعة القسطنطينية ، ومنح فيها لقب أمير الفلاسفة ؛ ثم دخل ديراً ، فلما وجد حياة الأديرة أهذا من أن تطاق عاد إلى الدنيا ، وكان رئيساً للوزراء من ١٠٧١ إلى ١٠٧٨ ؛ ووجد من وقته متسعاً للكتابة في السياسة ، والعلوم ، والنحو ، واللاهوت ، وفقه القانون ، والموسيقى والتاريخ . ويسجل كتابه المعروف

باسم كرونوغرافيا Chronographia أو سجل الزمان الدسائس والمخازى التى حدثت فى مائة عام (٩٧٦ - ١٠٧٨) بصراحة ، وحماسة وكبرياء (يقال عن قسطنطين التاسع إنه كان « رهين إشارة بسلوس »^(٢٥)) . وهى ذى فقرة من وصفه للثورة التى أعادت ثيودورا إلى العرش فى عام ١٠٥٥ نضربها مثلاً لما قلناه :

وكان كل (جندى فى الجمع) مسلحاً : فكان واحد منهم يحمل بلطة قصيرة اليد ، وآخر يحمل بلطة حربية ، وثالث يحمل قوساً ، ورابع يحمل حربىة . وكان بعض الغوغاء يحملون حجارة ثقيلة ، وأخذوا جميعاً يهرولون ، اضطراب عظيم . . . إلى مسكن ثيودورا . . . ولكنها لجأت إلى كنيسة صغيرة ، وأصمت أذنيها عن سماع صياحهم . وترك الغوغاء النصيح ولجأوا معها إلى العنف ، فاستل بعضهم خناجرهم ، وألقوا بأجسادهم على ثيودورا كأنهم يريدون أن يقتلوها ، ثم اختطفوها بقوة من مأواها المقدس ، وأبسوها ثياباً فخمة ، وأركبوها جواداً ، وأحاطوا بها ، وقادوها إلى كنيسة أيا صوفيا ، حيث قدم لها جميع السكان عظامهم وسوقتهم فروض الطاعة والولاء ، ونادوا كلهم بها ملكة عليهم^(٢٦) .

وتكاد رسائل بسلوس الشخصية تبلغ من السحر والبلاغة ما بلغته رسائل شيشرون ، وكانت خطبه ، وأشعاره ، وكتبه حديث الناس فى زمانه ؛ وكانت ملحه الحبيثة ونكاته القاتلة حافزاً مشيراً وسط علم معاصريه الخم الثقيل . وإذا ما وازناه هو وفوتىوس وثيوفانىس بأبناء الكوين Alcuin ، وبرابانى Rabani وأبناء جربرت Gerbert الذين كانوا يعيشون فى الغرب فى أيامه ، بدا هؤلاء وكأنهم ضعاف مهاجرون من الهمجية إلى بلاد العقل .

وكان الفن أبرز نواحي النهضة البيزنطية . ذلك أن حركة تحطيم الصور والتماثيل الدينية قد حرمت فى خلال الفترة الواقعة بين ٧٢٦ و ٨٤٢ تمثيل الكائنات المقدسة بالنحت الجسم أو بالصور وإن كانت فى الثانية أقل صرامة

منها في الأولى.. ولكنها عوضت الفنان عن هذا التحريم بأن حررتة من
الاقتصار الممل على الموضوعات الكنسية ، ونهته إلى ملاحظة الحياة الدنيوية
وتصويرها وتزيينها. فتمت اتخذ موضوعات لفنه بدل الآلهة الأسرة الإمبراطورية ،
والأشراف المناصرين لها ، والحادثات التاريخية ، ووحوش الغاب ، ونبات
الحقول وفاكهتها ، وما يجرى في البيوت من حوادث تافهة . وأنشأ بأسيل
الأول في قصره النيا Nea أو الكنيسة الجديدة ، « وزينها كلها » على حد
قول كاتب معاصر « بالآلى الجميلة ، والذهب ، والفضة البراقة ، والفسيفساء ،
والحرير ، والرخام مما لا تحصى أنواعه » (٢٧) .

ومن أعمال القرن التاسع كثير من النقوش التي أزيح عنها الستار حديثاً
في كنيسة أياصوفيا . وقد أعيد بناء قبتها الوسطى في عام ٩٧٥ بعد أن
دمرها زلزال ثم وضعت فيها الصورة العظيمة المصنوعة من الفسيفساء والتي
تمثل المسيح جالساً على قوس قزح ، ثم وضعت فيها نقوش أخرى بالفسيفساء
في عام ١٠٢٨ . وكانت هذه الكنيسة الضخمة تنبعث فيها الحياة الدائمة ، كما
تنبعث في الكائنات الحية ، بموت أجزائها وتجديدها . واشتهرت أبوابها
البرنزوية التي وضعت فيها عام ٨٣٨ بجهاها الممتاز شهرة جعلت ذوى الشأن
يأمرون بأن تصنع في القسطنطينية أبواب مثلها لدير مونتى كازينو Monte
Casino ، وكنيسة أملى ، وباسلقا سان پولو القائمة في خارج أسوار
رومة . ولا يزال الباب الأخير ذو المصراعين المصنوع في القسطنطينية عام
١٠٧٠ قائماً حتى الآن يشهد بعظمة الفن البيزنطى .

وكان القصر الملكى أو « القصر المقدس » الذى كانت النيا مُصلاًه مجموعة
متزايدة من الحجرات ، وأبهاء الاستقبال ، والكنائس والحمامات ، والأجنحة
المنعزلة ، والحدايق ، والدهاليز ذات العمدة ، والأبهاء . وقلتها جلس إمبراطور على
العرش إلاضاف إليه شيئاً جديداً . ونخلع ثيوفياس على هذه المجموعة مسحة شرقية
جديدة بأن أضاف إليها حجرة للعرش تعرف باسم التريكوكوس Triconchos

وهو اسم مشتق من الحاريب الشبيهة بالأصداف والتي تكون ثلاثة من جوانبها - وذلك طراز أخذ من بلاد الشام وأدخل عليه بعض التحسين . وقد شاد في الجهة الشمالية من هذه الحجرة قاعة اللؤلؤة وفي الجهة الجنوبية منها عدة من البلياقا Beliakka أو حجرات الشمس ، والكاملات وهي حجرات ذوات سقف من الذهب ، وعمد من الرخام الأخضر ، وفسيفساء غاية في الرونق تمثل على أرضية من الذهب رجلاً ونداء يجمعون الفاكهة . وهذا النقش نفسه قد فاقه نقش آخر على جدران بناء مجاور له يمثل بالفسيفساء الزرقاء أشجاراً بارزة من ورائها سماء من الفسيفساء الذهبية ، وتفوقه كذلك أرض بهو التوافق الذي تحسبه مربعاً مليئاً بالأزهار . وأطلق ثيوفيلس العنان لذوقه الغريب الشاذ وافتتانه بالعظمة إلى أقصى حدود الافتتان في قصره بمجنورا Magnaura ، فقد كانت تشرف على العرش شجرة ذهبية تجثم على غصونها وعلى العرش نفسه طيور من الذهب ، وترقد على جانبي المقعد الملكي حيوانات خرافية مجنحة ذهبية ، وعلى الأرض آساد أقدامها تحت قدميه ، فإذا ما مثل بين يديه سفير أجنبي قامت الحيوانات الخرافية ، ووقفت الآساد الذهبية ، وهزت أذيالها ، وزارت ، وغنت الطيور أغاني آية (٢٨) . وكانت هذه السخافات كلها صور مطابقة من مثيلاتها التي كانت في قصر هارون الرشيد ببغداد .

وكان المال الذي ينفق في تزيين القسطنطينية يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة ومن الوحدات العسكرية في الدولة . ولكن ما بقي من هذا المال كان يكفي لتزيين عواصم الولايات زينة أقل من زينة العاصمة الكبرى . فقد قامت الأديرة ، بعد أن عاد إليها الثراء ، فخمة كثيرة العدد ، وعاد إليها ثراؤها : ففي القرن العاشر أنشئ دير لافرا Lavra . ودير إقرون Ivron في آثوس Athos وفي القرن الحادي عشر أقيم دير دافني Daphni للراهبات بالقرب من اليوسيس Eleusis . وتعد فسيفساؤه التي لا تكاد تتفترق عن الفسيفساء اليونانية والرومانية القديمة أجمل مثل للطراز البيزنطي

الأوسط . واشتركت بلاد الكرج ، وأرمينية ، وآسية الصغرى في هذه الحركة ، وأمست مراكز أمامية للفن البيزنطى . واستثارت المباني العامة في أنطاكية إعجاب المسلمين ، وأنشئت في بيت المقدس كنيسة الضريح المقدس ، ولما يمحض على انتصارات هرقل لإقليم ؛ وفي مصر شاد الأقباط المسيحيون قبل الفتح العربى وبعده كنائس ذات قباب متواضعة في حجمها ولكنها مزدانة أجمل زينة فنية بكل ما وصل إلى أهلها من مصر الفرعونية ، والبطليموسية ، والرومانية ، والبيزنطية من حذق في أشغال المعادن ، والعاج ، والخشب ، والنسيج لم ينتقص منه شيء . وأخرج اضطهاد محطى الصور والتماثيل آلاف الرهبان من الشام ، وآسية الصغرى ، والقسطنطينية إلى جنوبى إيطاليا حيث بسط عليهم البابوات حمايتهم ؛ وبفضل هؤلاء اللاجئين ، والتجار الشرقيين ازدهر الطراز المعمارى والزخرفى البيزنطى فى بارى ، وأترنتو ، وبنفتو ، ونابلى ، ورومة نفسها . وظلت راقنا يونانية فى فنها ، وأخرجت فى القرن السابع الفسيفساء الضخمة التى نشاهدتها فى سانت أبولينارس St. Appolinaris فى كلاس Classe . وظلت سلانيك بيزنطية ، وزينت كنيسة أياصوفيا بصور مقبضة للقديسين من الفسيفساء نجيحة كالقديسين الذين صورهم الجريكو El Greco .

وأخرجت النهضة البيزنطية فى جميع هذه الأراضى والمدن ، كما أخرجت فى العاصمة نفسها ، سيلا من الروائع الفنية فى الفسيفساء والنقش الدقيق ، والفخار ، والميناء ، والزجاج ، والخشب ، والعاج ، والبرنز ، والحديد ، والجواهر ، والأقمشة المنسوجة ، والمصبوغة ، والمنقوشة ، بمهارة يفخر بها العالم كله . وكان الفنانون البيزنطيون يصنعون أكوابا من الزجاج الأزرق ، نقشت عليها تحت سطحها ، أغصان وأوراق أشجار ، وطيور ، وصور آدمية ؛ وآنية زجاجية ، ذات رقاب مطلية بالميناء عليها زخارف عربية الطراز وأزهار ؛ وأشكال أخرى من الزجاج بلغت من الدقة حدا جعلها هى خير ما أهدها الأباطرة البيزنطيون إلى

رؤساء الدول الأجنبية . وكان أعظم قيمة من هذه الهدايا السابقة ثمين الثياب والشيلان ، والحبريات ، والجلبب الدلماشية(*) التي تبرز مفاخر فن النسيج البيزنطى . وكانت « عباءة شارلمان » فى كنيسة متز والحريز الرقيق الذى وجد بأخن Aachen فى تابوت ذلك الملك من هذا الطراز . وكان مصدر نصف الفخامة التى تحيط بالإمبراطور البيزنطى ، وكثير من الرهبة التى ترفع من مقام البطريق ، وبعض الأبهة التى تكسو المٌخَلَّص « والعذراء والشهداء فى شعائر الكنيسة ؛ كان مصدر هذا كله هو الثياب الفخمة التى أنفقت فيها حياة عدد من الصناع ، وازدانت بفن القرون الطوال ، وخير ما أخرجه البر والبحر من أصباغ . واحتفظ صائغو الحلى الذهبية وقاطعو الجواهر بذروة مجدهم الفنى حتى القرن الثالث عشر ، ولا تزال كنوز كنيسة القديس مرقس باليندقية مليئة بثمار فهم . ومن مخلفات ذلك العصر الفسيفساء الواقعية النزعة المدهشة الصنع التى وجدت فى كنيسة القديس اوقا والمحفوظة فى كلية الدراسات العليا Collège de Hautes Etudes فى باريس ؛ ورأس المسيح المتوهج المنقوش فى فسيفساء ديسز فى كنيسة أياصوفيا ؛ والفسيفساء الكبيرة الحجم التى تغطى أربعين ياردة مربعة ، والتى استخرجت فى اسطنبول عام ١٩٣٥ من خرائب قصر الأباطرة المقدونيين (٢٩) . ولما خفت حدة محطى الأصنام ، وفى الأماكن التى لم تصل إليها حركتهم ، غذت الكنيسة تقوى الناس بالصور المنقوشة على الخشب بالطلاء المائى الفردى ، والتى تكتنفها أحياناً أطر منقوشة بالميناء أو الجواهر . وليس فى تاريخ العالم كله صور دقيقة تفوق صورة « رؤيا حزقيال » التى يحتويها مجلد من عظام جريجورى نزيانزين محفوظ فى المكتبة الأهلية بباريس (٣٠) ، أو الصور الإيضاحية الأربعة التى يحتويها مخطوط « المناجاة » (Monologus) المحفوظ فى الفاتكان (حوالى

(*) نوع من الجلبب يلبسها شامسة الكنيسة الكاثوليكية وأساقفتها أحياناً والاسم مشتق

من مقاطعة دلماشيا على البحر الأدريايوى . (المترجم)

عام ١٠٠٠) ؛ أو صور داود في كتاب التراتيل المحفوظ بباريس (حوالى عام ٩٠٠) . نعم إن هذه الصور لا تراعى فن المنظور ، ولا تعنى بإبراز الأشكال بطريق الضوء والظل ، ولكنها تعوض هذا بالتلوين القوي البراق ، وبالخيال الحى ، وبالعلم الحديث بأصول التشريح البشرى والحيوانى ، وبالعدد الجهم الموثلف من الوحش والطير ، والنبات والزهر ، وتتخلل القديسين والأرباب ، وبالفساقى ، والعقود والإيوانات - فيها طيور تنقر الفاكهة ، ودبية ترقص ، ووعول وعيجول تتشابك قرونها فى النضال ، وفهد يرفع ساقه الحبيثة ليمثل بها الحرف الأول من جملة دينيه (٣١) .

ولقد عرف صانعوا الفخار البيزنطيون من زمن بعيد فن التطعيم بالميناء ، وذلك بأن يضعوا على الطين المحروق والقاعد المعدنى أكسيداً معدنياً إذا أدخل النار امتزج بالقاعد وأكسبه بريقاً ووقاية . وكان هذا الفن قد وصل من الشرق إلى بلاد اليونان القديمة ، حيث اختفى فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم عاد إلى الظهور فى القرن الثالث بعده . وكانت هذه الفترة البيزنطية الوسطى غنية بأعمال الميناء من رصائع للصور ، ومن صور للقديسين ، وصلبان ، ومن علب لحفظ المخلفات ، وأكواب ، وكؤوس للقرايين ، وجلود كتب ، وزينات للسروج وغيرها من العدد . وقد أخذت بيزنطية من فارس الساسانية منذ ذلك العهد البعيد وهو القرن السادس ، فن الميناء المقسم : وذلك بأن تصب العجينة الملونة فى السطح المقسم إلى مساحات محاطة بأسلاك رفيعة أو قطع رقيقة من المعدن ؛ وهذه الحواجز الملتحمة بقاعدة معدنية تكون النقش الزخرفى . ومن أعظم الأمثلة لفن الميناء المقسم وأوسعها شهرة علبه لحفظ المخلفات صنعت (حوالى عام ٩٤٥) لقسطنطين برفيروجنس محفوظة الآن فى لمبورج Lemburg وهى بيزنطية بنوع خاص فى دقة صنعها وفى أمانة صانعها ، وفى نقوشها الزخرفية الموفورة . وليس ثمة فن من الفنون تغلب عليه الصبغة الدينية أكثر مما تغلب على الفن

البيزنطى وليس أدل على هذا من أن مجلساً للكنائس عقد في عام ٧٨٧ قد وضع القانون القائل بأن : على المصورين أن ينفذوا ، وعلى رجال الدين أن يقرروا ، الموضوعات ويشرفوا على عمليات تنفيذها « (٣٢) . ومن ثم كانت النزعة الجدية المكتتبه لهذا الفن ، وضيق دائرة موضوعاته ، والتكرار الممل فى أساليبه وأنماطه ، وندرة مغامراته فى عالم الواقعية ، والفكاهة ، والحياة الشعبية ؛ ولم يكن لهذا الفن نظير فى تنميته ولآلئه ، ولكنه لم يبلغ فى يوم من الأيام ما بلغه الفن القوطى الناضج من تنوع وقوة ، ومن نزعة دنيوية شائنة . ومن أجل هذا النقص عينه تزيد دهشتنا من انتصاراته وتأثيره ، فقد كان العالم المسيحى على بكرة أبيه من كيف إلى فارس يقر له بالزعامة ، ويتملقه بتقليده ؛ وحتى الصين نفسها كانت بين الفينة والفينة تنحنى له إجلالاً وتكريماً . ولقد كان فى أشكاله السورية نصيب مع الفن الفارسى فى تكوين موضوعات الفن الإسلامى فى العمارة ، والفسيفساء ، والزخرف . وشكلت البندقية فيها على صورة فن القسطنطينية ، كما حذا الفن فى كنيسة القديس مرقس حذو كنيسة الرسل فى تلك المدينة ؛ وظهر فن العمارة البيزنطية فى فرنسا ، ثم اتخذ طريقه نحو الشمال حتى بلغ آخن . وكانت المخطوطات المزخرفة فى كل مكان شاهداً على ما للفن البيزنطى من أثر فيه ، وأخذ البلغار عن بيزنطية دينها وزخارفها ؛ ولما اعتنق فلاديمير مذهب الكنيسة المسيحية اليونانية فتح بذلك أكثر من عشر سبل واسعة دخل منها الفن البيزنطى إلى الحياة الروسية .

وظلت الحضارة البيزنطية من القرن الخامس إلى القرن الثانى عشر هى السائدة فى أوربا المسيحية فى النظم الإدارية والدبلوماسية ، وجباية الأموال ، وفى الأخلاق ، والثقافة ، والفن . وأكبر الظن أنه لم يوجد قبل أيامها مجتمع يماثلها فى فخامة زينتها ، كما لم يوجد قبل أيامها دين به من المظاهر الفخمة مثل ما فى دينها . وكانت هذه الحضارة ، كما كانت كل حضارة أخرى . تعتمد على كدح رقيق الأرض والعبيد ، وكان ما فى محاريبها وقصورها من ذهب وورخام هو

عرق العمال الذين يكدهون في الأرض قد تبدل وتجسم : وكانت ثقافتها ، ككل ثقافة سواها في زمانها ، قاسية ؛ وكان في وسع الرجل الذي ينخر راكمأ أمام صورة العذراء أن يذبح أطفال موريق أمام عيني أبيهم . وكان في هذه الثقافة شيء من الضحالة ، وكان عليها طلاء من الرقة الأرستقراطية يغطي بناء ضخماً من الخرافات الشعبية ، ومن التعصب ، ومن الجهل يتصف به غير الأميين ، وكان نصف(*) هذه الثقافة يوجه إلى تأييد ذلك الجهل ، ولم يكن يسمح لعلم أو فن أن ينمو أو فلسفة أن تنشأ إذا كانت تتعارض مع هذا الجهل ، وظلت الحضارة اليونانية مدى ألف عام لا تضيف شيئاً جديداً إلى علم الإنسان بالعالم . فليس ثمة كتاب في الأدب البيزنطي أثار خيال بني الإنسان ، أو خلده على مدى الزمان . ذلك أن العقل اليوناني في العصر الوسيط قد أثقله عبء التراث العظيم الذي انحدر إليه من الأيام الحالية ، وسجن في المتاهة الدينية التي فقدت فيها بلاد اليونان المحتضرة مسيحية المسيح ، فمعجز عن أن ينهض فينظر نظرة واقعية ناضجة إلى الإنسان وإلى العالم . وسبب هذا أنه مزق المسيحية شيعا لاختلافه على حرف واحد من حروف الهجاء أو على كلمة واحدة ، وحطم الإمبراطورية الرومانية الشرقية لأنه رأى في كل خروج على الدين خيانة للدولة .

لكننا لانزال يدهشنا أن هذه الحضارة قد عمرت ذلك الزمن الطويل ، ترى ما هي الموارد الخفية ، وما هي القوة الحيوية الكامنة ، التي أمكنتها من أن تبقى حية بعد أن انتصر عليها الفرس في آسية ، وبعد أن انتزع منها المسلمون بلاد الشام ، ومصر ، وصقلية ، وأسبانيا ؟ لعل العقيدة الدينية التي أضعفت الدفاع عن الدولة باعتماد أهلها على مخلفات القديسين ومعجزاتهم قد بثت بعض النظام والتأديب في شعب ديدنه الصبر ، وإن انتابته في فترات نوبات من

(*) طلب جيش « الوحدة » العسكرية الشرقية في عام ٦٦٩ أن يكون للإمبراطورية

ثلاثة أباطرة في وقت واحد ليتفق هذا مع الثالوث الديني (٣٧)

الاضطراب ، وأحاطت الأباطرة والدولة بهالة من القداسة يرهبها التبديل .
وقد أكسبتها البيروقراطية الخالدة بهيئتها الجامعة استمراراً واستقراراً لم تنل
منهما جميع الحروب والثورات ، وحافظت على السلام في الداخل ، ونظمت
اقتصادياتها ، وجيبت الضرائب التي أمكنت الإمبراطورية من أن توسع
رقعتها مرة أخرى حتى كادت تبلغ ما بلغته أيام جستنيان . وأكبر الظن أن
موارد الخلافة الإسلامية كانت أقل من موارد الدولة البيزنطية وإن كانت
أملاك الخلفاء أوسع رقعة من أملاك الأباطرة ، ولقد كان ضعف نظام
الحكومة الإسلامية ، وقصور وسائل الاتصال ودولاب الإدارة عن الوفاء
بمخارج الدولة ، سبباً في تفككها بعد ثلاثة قرون من قيامها ، على حين
أن الإمبراطورية البيزنطية عاشت ألف عام .

وقد قامت الحضارة البيزنطية بثلاث مهام حيوية : أولها أنها ظلت
ألف عام حصناً حصيناً وقى أوروبا هجمات الفرس والدولة الإسلامية في
المشرق ، وثانيها أنها احتفظت في أمانة بالنصوص التي أعيد فيها تسجيل
آداب اليونان الأقدمين وعلومهم وفلسفتهم ، وأسلمتها كاملة إلى أوروبا
حيث بقيت حتى نهبها الصليبيون في عام ١٢٠٤ . وجاء الرهبان الفارون
من وجه محطمي الصور والتماثيل المقدسة بالمخطوطات اليونانية إلى جنوبي
إيطاليا ، وأعادوا إلى هذه البلاد علمها القديم بالآداب اليونانية ، وغادر
الأساتذة اليونان مدينة القسطنطينية فراراً من المسلمين والصليبيين على
السواء ، واستقروا أحياناً في إيطاليا ، وكانوا هم الحاملين لبذور الآداب
القديمة ، وهكذا أخذت إيطاليا عاماً بعد عام تستكشف بلاد اليونان من
جديد ، وظل الناس يغترقون من ينبوع الحضارة الذهنية حتى ثملوا .
وثالثها وآخرها أن بيزنطية هي التي أخرجت البلغار والصقالبة من دياجير
الهمجية إلى المسيحية ، ونصبت قوة الجسم الصقلبي التي لا حد لها إلى روح
أوروبا وحياتها ومصائرهما .

الفصل السادس

البلقان (٥٥٨ - ١٠٥٧)

على بعد بضعة أميال لا أكثر في شمال القسطنطينية بحر مضطرب من خلائق يحتقرون الآداب ويحبون الحرب بنصف قلوبهم . ولم تكد موجة الهون تراجع حتى أقبلت من التركستان خلائق أخرى جديدة تمت إليهم بصلة الدم يدعون الآفار مخترقين جنوبي روسيا (٥٥٨) واسترقوا جموعاً من الصقالبة ، وأغاروا على ألمانيا حتى نهر الإلب (٥٦٢) ، ودفعوا للمبارد أمامهم إلى إيطاليا (٥٦٨) ، وعاثوا في بلاد البلقان فساداً حتى كاد ينمحي منها سكانها الذين ينطقون باللغة اللاتينية . وبسط الآفار سلطانهم في وقت ما على البلاد الممتدة من البحر البلطى إلى البحر الأسود ، وحاصروا القسطنطينية في عام ٦٢٦ وكادوا يستولون عليها ؛ وكان عجزهم عن ذلك بداية اضمحلالهم ؛ فغلبهم شارلمان على أمرهم في عام ٨٠٥ ، وما لبثوا أن امتصهم البلغار والصقالبة شيئاً فشيئاً .

وكان البلغار ، وهم في أصلهم خليط من الدم الهوني ، والأجرى Ugrian والتركى ، يكونون قبل ذلك وقت جزءاً من إمبراطورية الهون في روسيا ، وأقام فرع منهم بعد موت أتلا Atilla مملكة لهم - « بلغاريا القديمة » - على ضفاف نهر الفلجا Volga حول مدينة قازان الحالية . وأثرت عاصمتهم بلغار Bolgar من التجارة النهرية ، وظلت مزدهرة حتى خربها التتار في القرن الثالث عشر . وهاجر فرع آخر منهم في القرن الخامس نحو الجنوب الغربى إلى وادى الدن Don ، وعبرت إحدى قبائل هذا الفرع ، وهى قبيلة بليوتجر Uigurs ، نهر الدانوب (٦٧٩) ، وأسست مملكة بلغارية ثانية في موثيزيا

Moesia واسترقوا من فيها من الصقالبة ، وأخذوا عنهم لغتهم وأنظمتهم ، وامتصهم آخر الأمر العنصر الصقلي . وبلغت الدولة الجديدة أوجها في عهد الخاقان أو الخان (الرئيس) كروم Krum (٨٠٢) ، وهو رجل جمع إلى شجاعة المممج دهاء المتحضرين . وغزا الخاقان مقدونية - إحدى ولايات الدولة الرومانية الشرقية - ونهب ١١٠٠ رطل من الذهب ، وأحرق مدينة سرديقا Sardica المسماة الآن صوفيا عاصمة بلغاريا الحالية . وكان له الإمبراطور نقفور الصاع صاعين وأحرق پلسكا Pliska عاصمة كروم (٨١١) ؛ ولكن كروم أوقع الجيش اليوناني في كمين نصبه له في أحد ممرات الجبال ، وقتل نقفور ، واتخذ من جمجمة الإمبراطور قدحاً لشرابه . ثم حاصر القسطنطينية في عام ٨١٣ ، وأحرق أرباضها ، وضرب تراقية ، وفعل بها ما فعلته الجيوش التي غزتها في عام ١٩١٣ . وبينما هو يعدّ العدة لهجوم آخر إذ انفجر أحد أوعيته الدموية وقضى على حياته . وعقد ابنه أمورتاج Omurtag الصلح مع اليونان وأسلموه بمقتضاه نصف تراقية ، واعتنق البلغار المسيحية في عهد الخان بوريس Boris (٨٥٢ - ٨٨٨) . وآوى بوريس نفسه بعد حكم طويل إلى أحد الأديرة ، ثم خرج منه بعد أربع سنين ليخلع ابنه الأكبر فلادمير ، ويُجلس على العرش ابناً آخر أصغر من أخيه يدعى سميون Simenn (٨٩٣ - ٩٢٧) ؛ وعاش بوريس حتى عام ٩٠٧ ، وأصبح هو أول قديس قومي لبلغاريا . وكان سميون من أعظم ملوك زمانه ، فقد وسّع رقعة أملاكه حتى شملت بلاد الصرب والبحر الأدريايوي ، ولقب نفسه « إمبراطوراً وحاكماً مطلقاً لجميع البلغار واليونان » ، وشن الحرب عدة مرار على پيزنطية ، لكنه حاول أن يدخل الحضارة إلى بلاده بتراجم الآداب اليونانية ، وأن يجمّل عاصمته في أقاليم الدانوب بروائع الفن اليوناني . ويصف أحد معاصريه مدينة برسلاف Breslav بأنها « من أعجب ما تقع عليه العين » ، مليئة « بالقصور والكنائس الشاهجة » الكثيرة الزخرف ؛ ولقد كانت في القرن الثالث عشر أكبر مدينة

في بلاد البلقان كلها ؛ ولا تزال خربات قليلة باقية منها . وأضعفت المنازعات الداخلية بلغاريا بعد موت سميون . وحول ملاحدة بجوميل Bogomil نصف الفلاحين خلائق مسالمين شيوعيين ؛ واستردت بلاد الصرب استقلالها في عام ٩٣١ ؛ وأعاد الإمبراطور يوحنا تزيمسيس بلغاريا الشرقية إلى أحضان الإمبراطورية اليونانية في عام ٩٧٢ ؛ وفتح باسيل الثاني بلغاريا الغربية في عام ١٠١٤ ، وبذلك أصبحت بلغاريا (١٠١٨ - ١١٨٦) مرة أخرى ولاية تابعة لبيزنطية .

وفي أثناء هذه الأحداث أقبل على الإمبراطورية القلقة زائرون من أقوام همج جدد يدعون المجر . والراجح أن المجر كانوا ، كما كان البلغار ، من تلك القبائل التي يطلق عليها ذلك الاسم غير الدقيق الأجرى Ugri أو الإيجور Igurs (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة Ogre المرادفة لكلمة غول) ، والتي كانت تضرب في البلاد المصاوبة لحدود الصين الغربية . وكان هؤلاء أيضاً قد سرى إليهم دم هوني وتركي كثير لطول اختلاطهم بهذين العنصرين . وكانوا يتكلمون لغة وثيقة الصلة بلغتي الفين (أهل فنلندا) والسمويد Somoyeds . وقد هاجروا في القرن التاسع الميلادي من سهوب الأورال وبحر الخزر (قزوين) إلى الأراضي المجاورة لنهرى الدن والدينير Dneiper والبحر الأسود ، حيث كانوا يعيشون بفلح الأرض في الصيف ، وصيد السمك في الشتاء ، واقتناص الصقالبه وبيعهم عبيداً إلى اليونان في جميع فصول العام . وبعد أن أقاموا في أوكرانيا ستين عاماً أو نحوها تحركوا مرة أخرى في اتجاه الغرب . وكانت أوروبا وقتئذ في الدرك الأسفل من حياتها ؛ فلم تكن فيها حكومة قوية غرب القسطنطينية ، ولم يقف في وجههم جيش قوى . لهذا اجتاح المجر بسرابيا Bessarabia وملدافيا Moldavia (البغدان) في عام ٨٨٩ ، وشرعوا في عام ٨٩٥ في فتوحهم الدائمة لبلاد هنغاريا (المجر) بقيادة زعيمهم أرياد Arpad . وفي عام ٨٩٩ عبرت جموعهم جبال الألب وانقضت على إيطاليا ، وأحرقوا بافيا Pavia وكناستها الثلاث والأربعين

جميعها ، وذبخوا أهلها ، وظلوا عاماً كاملاً يعيشون في شبه الجزيرة فساداً ،
ثم فتحوا بانونيا Pannonia ، وأغاروا على بافاريا Bavaria (٩٠٠ -
٩٠٧) ، وحربوا كارنثيا Carinthia (٩٠١) ، واستولوا على مورافيا
Moravia (٩٠٦) ، ونهبوا سكسونيا ، وثورنجيا Thuringia ، وسوابيا
Swabia (٩١٣) ، وألمانيا الجنوبية ، والألساس Alsace (٩١٧) ،
وانقضوا فجأة على الألمان المقيمين على ضفاف نهر الك Lech أحد روافد
الدانوب (٩٢٤) . وارتجفت لذلك قلوب الأوربيين وتوجهوا إلى خالقهم
بالدعاء والصلاة ، لأن هؤلاء المغيرين كانوا لا يزالون أقواماً وثنيين ،
ولاح أن العالم المسيحي مقضى عليه لا محالة . ولكن المجر هُزِموا عند جوثا
Gotha في عام ٩٣٣ ، ووقف زحفهم على أثر هذه الهزيمة ، ثم غزوا
إيطاليا مرة أخرى في عام ٩٤٣ ، ونهبوا برغنديا في عام ٩٥٥ . وانتهى
الأمر في ذلك العام نفسه بأن هزمتهم جيوش ألمانيا المتحدة بقيادة أوتو Otto
الأول في معركة حاسمة في لكفلد Lechfeld أو وادي الك بالقرب من مدينة
أوجزبرج Augsburg ، واستطاعت أوروبا عقب هذه الهزيمة أن تتنفس
الصعداء بين خرباتها بعد أن حاربت في قرن واحد (٨٤١ - ٩٥٥)
النورمان في الشمال ، والمسلمين في الجنوب ، والمجر في الشرق .

وبعد أن خضع المجر أضحت أوروبا أكثر أمناً مما كانت لاعتناقهم الدين
المسيحي (٩٧٥) . ذلك أن الأمير جيزا Geza خشى اندماج بلاد هنغاريا في
الإمبراطورية البيزنطية التي عادت وقتئذ توسع رقعتها ، ولهذا اختار المذهب
المسيحي اللاتيني لكي يسلمه الغرب ، وزاد على ذلك بأن زوج ابنة استيفن من
جزيلا Gisela ابنة هنري الثاني دوق بافاريا . وأسس استيفن الأول (٩٩٧ -
١٠٣٨) شامعاً لهنغاريا وراعياً وأعظم ملوكها ؛ فقد نظم شؤون المجر على غرار
النظام الإقطاعي الألماني ، وقوى الأساس الديني الذي أقام عليه المجتمع الجديد
بأن قبل مملكة هنغاريا وتاجها من البابا سلفستر Sylvester الثاني (١٠٠٠) .

وهرع الرهبان البندكتيون إلى بلاده ، وأنشأوا الأديرة والقرى وأدخلوا فيها فنون الغرب الزراعية والصناعية ؛ وبهذا انتقلت هنغاريا بعد حروب دامت مائة عام من ظلمات الهمجية إلى نور الحضارة ؛ ولما أن أهدت الملكة جزيلا صليبا إلى صديق لها ألماني كان هذا الصليب آية رائعة من فن الصياغة الذهبية .

وكان أقدم موطن معروف للصقالبه لإقليم من روسيا كثير المناقع تحيط به كيف ، ومهيلف Mohilev ، وبرست لتوفسك Brest Litovsk ، وكانوا من عنصر هندي أوربي يتكلمون لغات ذات صلة باللغتين الألمانية والفارسية . وكانت أقوام من البدو تحتاج بلادهم من آن إلى آن ، وكثيراً ما كانوا يُسْتَرَقُّون ، وكانوا على الدوام يعانون مرارة الفقر والظلم ، ولهذا طبعوا على الصبر وجعلتهم الصعاب وخشونة العيش الدائمة صلابا أشداء ، وفاقت خصوبة نسائهم نسبة الوفيات العالية بينهم المسببة من المجاعات ، والأمراض والحروب ، التي لم ينطق لها سكير . وكانوا يسكنون كهوفاً أو أكواخاً من الطين ، ويعيشون من صيد الحيوان ، ورعيه ، وصيد السمك ، وتربية النحل ؛ وكانوا يبيعون العسل ، والشمع ، والجلود ؛ ثم استسلموا آخر آخر الأمر لحياة الزراعة والاستقرار . وكانوا هم أنفسهم يطارِدُونَ ويدْفَعُونَ إلى المناقع والغابات التي يتعذر الوصول إليها ، ثم يؤمرون بوحشية ، ويباعون بلا رحمة ؛ ولهذا تخلقوا بأخلاق زمانهم ، فكانوا يستبدلون السلع بالرجال ؛ وإذا كانوا يعيشون في أقاليم باردة رطبة ، فقد اعتادوا أن يدفثوا أجسامهم بالمشروبات الكحولية القوية ؛ ومن أجل هذا وجدوا أن المسيحية خير لهم من الإسلام الذي يحرم الخمر (٣٤) . وكانت أبرز عيوبهم هي السكر ، والقنطرة ، والقسوة ، وحب السلب والنهب . وكان الادخار ، والحذر ، وسعة الخيال تتذبذب فيهم بين الفضيلة والرذيلة ؛ ولكنهم كانوا إلى ذلك طيب القلبين ، أسخياء ، حسنى العشرة ، مولعين بالألعاب ، والرقص والموسيقى ، والغناء . وكان زعمائهم كثيرى الأزواج ، أما الفقراء فكانوا يقتصرون على واحدة ، وكانت النساء

- اللاتي يشترين بالمال أو يؤسرن في الحروب ليتخذن زوجات - وفيات مطيعات على غير ما كان ينتظر منهن^(٣٥) . وكانت الأسر الخاضعة لسلطان الأب تنتظم انتظاما غير وثيق العرى في عشائر ثم تنتظم العشائر في قبائل . ولربما كان للشعائر أملاك مشتركة في مراحل الرعى الأولى^(٣٦) ، ولكن قيام الزراعة - التي تثمر فيها الدرجات المختلفة من النشاط ، والكفاية في التربة المختلفة الحصوبة : ثماراً غير متساوية - أدى إلى نشأة الملكية عند الأفراد أو الأسر وكثيراً ما كان الصقالبة يتفرقون بسبب الهجرة أو الحروب الداخلية ، ولهذا نشأت بينهم عدة لغات صقلبية : البولندية والونديشية Wendish ، والتشكية ، والسلوفاكية في الغرب ، والسلوفينية والصربيكرواتية Serbo-Croat ، والبلغارية في الجنوب ، والروسية الكبرى ، والروسية البيضاء ، والروسية الصغرى (الروثينية والأكرانية Rurhenian & Ukrainian) في الغرب . على أن الذين يتكلمون أية لغة من هذه اللغات قد ظلوا يفهمون كل واحدة منها ، وكانت جامعة اللغة والعادات بين الصقالبة ، مضافة إلى سعة بلادهم ، وكثرة مواردهم ، وحيويتهم . الناشئة من قسوة الظروف المحيطة بهم ، والانتقاء الصارم ، والطعام البسيط الخشن ، كانت هذه كلها سبباً في ازدياد قوة الصقالبة الآخذة في الانتشار .

ولما أن زحفت القبائل الألمانية جنوباً وغرباً في هجرتها إلى إيطاليا وغالة خلفت وراءها رقعة من الأرض قليلة السكان في شمالي ألمانيا ووسطها . وانجذب الصقالبة نحو هذا الفراغ ، ودفعهم إليه دفعا الهون الغزاة ، فانتشروا غرباً وعبروا نهر القستيو لا Vistula ، ونهر الإلب نفسه ، وكانوا في هذه الأرض هم الوند Wend ، والبولنديين ، والتشك ، والفلاخ Vlache ، والسلوفاك الذين نعرفهم فيما بعد . وحدث في أواخر القرن الثالث تيار جارف من الهجرة الصقلبية غمر ريف اليونان ، وأغلقت المدن بابها دونه ، ولكن دما صقلبياً غزيراً امتزج بالدم الهليني . وجاءت حوالي عام ٦٤٠ قبيلتان صقلبيتان ذواتي قربي هما الصربي Srbi ،

والكروباتى Chrobati ، واستوطننا بانونيا وإيركم Illyricum من جديد .
واعتنق الصرب المذهب اليونانى المسيحى ، واعتنق الكروات المذهب
الرومانى . وأضعف هذا الانقسام الدينى ، الذى عاق الوحدة الجنسية
واللغوية ، الأمة أمام جيرانها ، ولهذا أخذت بلاد الصرب تتأرجح بين
الاستقلال تارة ، والخضوع لبيزنطية أو بلغاريا تارة أخرى ، إلى أن كان
عام ٩٨٩ فهزم صمويل قيصر البلغار يوحنا فلادمير الصربى ، وأسره ،
ثم زوجته بابنته كسارا Kossara وسمح له بالعودة إلى عاصمته زيتا Zita ،
على أن يكون فيها أميراً من قبل قلدмир . ذلك هو موضوع أقدم الروايات
القصصية الصربية فلدمير وكسارا التى ألفت فى القرن الثالث عشر . واحتفظت
المدن الساحلية فى دلماشيا القديمة - زارا ، واسپالاتو Spalato ، وراجوسا
Ragusa بلغتها وثقافتها اللاتينيتين ، أما بقية بلاد الصرب فأضحت
صقلبية . وحرر الأمير قواسلاف صربياً فى عام ١٠٤٢ ولكنها عادت
فاعترفت بسيادة بيزنطية فى القرن الثانى عشر .

ولما أن بلغت هذه الهجرة الصقلبية الرائعة العجيبه تمامها فى أواخر القرن
الثامن أمست أوربا الوسطى ، وبلاد البلقان ، والروسيا بأجمعها بحراً صقلبياً
تصطدم أمواجه بحدود القسطنطينية ، وبلاد اليونان ، وألمانيا .

الفصل السابع

مولد روسيا (٥٠٩ - ١٠٥٤)

لم يكن الصقالبة إلا آخر الأقاليم الكثيرين الذين كانوا يمرحون ويطربون في تربة روسيا الحصبة ، وسهوبها الرحبة ، وأنهارها الكثيرة الصالحة للملاحة ؛ ويأسون لمناقعها العفنة ، وغاباتها المانعة ، وافتقارها إلى المعامل الطبيعية التي تصد الأعداء الغازين ، وصيفها الحار ، وشتائها البارد . فلقد أنشأ اليونان منذ القرن السابع قبل الميلاد لا بعد على أقل سواحلها جذباً أي على شاطئ البحر الأسود الغربي والشمالى نحو عشرين بلدة - ألبيا ، وتانيس Tanais ، وثيودوسيا Theodocia ، وپنتيكپيوم Panticapium (كرتش Kerch) . واقتتلوا مع السكوديين الضاربين وراء هذه البلاد أو ناصروهم . وسرت إلى هؤلاء الأقاليم - وأكبر الظن أنهم من أصل إيراني - بعض عناصر الحضارة الفارسية واليونانية ، بل إنهم قد خرج من بينهم فيلسوف - أناخارسيس Anacharsis ٦٠٠ ق . م - قدم إلى أثينة وتناقش مع صولون .

ثم أقبلت في القرن الثاني قبل الميلاد قبيلة إيرانية أخرى هي قبيلة السرماتيين ، هزمت السكوديين وسكنت ديارهم ؛ واضمحات المستعمرات اليونانية في هذا الاضطراب . ودخل البلاد القوط من الغرب في القرن الثاني بعد الميلاد ، وأنشأوا مملكة القوط الشرقيين ، ثم قضى الهون على هذه المملكة حوالي عام ٣٧٥ ؛ ولم تكد سهول روسيا الجنوبية تشهد بعد هذا الغزو أية حضارة ، بل شهدت هجرات متتابعة من أقاليم بدو - هم البلغار ، والآفار ، والصقالبة ، والخزر ، والمجر ، والپتزيناك Patzinaks ، والكومان Cumans ، والمغول . وكان الخزر من أصل تركي زحفوا في القرن السابع مخرقين جبال القفقاس إلى جنوبي روسيا ، وأنشأوا

مُلْكًا منظمًا امتد من نهر الدنيبر إلى بحر قزوين (بحر الخزر) ، وشيدوا عاصمة لهم هي مدينة إنيل Itil على مصب نهر الفلجا Volga بالقرب من أستراخان الحاضرة ، واعتنق ملكهم هو والطبقات العليا منهم الدين اليهودي . وكانت تحيط بهم الدولتان المسيحية والإسلامية ، ولكنهم فضلوا في أكبر الظن أن يغضبوا الدولتين بدرجة واحدة عن أن يغضبوا واحدة منهما غضباً يعرضهم للخطر ، وأطلقوا في الوقت عينه الحرية الكاملة لأصحاب العقائد المختلفة ، فكانت لهم سبع محاكم توزع العدالة بين الناس - اثنتان للمسلمين ، واثنتان للمسيحيين ، واثنتان لليهود ، وواحدة للكفرة الوثنيين . وكان يسمح باستئناف أحكام المحاكم الخمس الأخيرة إلى المحكمتين الإسلاميتين ، إذ كانوا يرون أنهما أكثر عدالة من المحاكم الأخرى (٣٧) . واجتمع التجار على اختلاف أديانهم في مدن الخزر تشجعهم على ذلك هذه السياسة المستنيرة ، فنشأت هناك من ذلك نجارة منتعشة بين البحر البلطي وبحر قزوين ، وأصبحت إنيل في القرن الثامن من أعظم مدن العالم التجارية . وهاجم الأتراك البدو خزاريا Khazaria في القرن التاسع ، وعجزت الحكومة عن أن تحمي مسالكها التجارية من اللصوصية والقرصنة ، وذابت مملكة الخزر في القرن العاشر وعادت إلى الفوضى العنصرية التي نشأت منها . وجاءت من جبال الكربات في القرن السادس هجرة من القبائل الصقلبية إلى هذا الخليج الضارب في روسيا الجنوبية والوسطى . واستقرت هذه القبائل في وادي الدنيبر والدين ، ثم انتشرت انتشاراً أرق إلى بحيرة إلمن Ilmen في الشمال ، وظل أفرادها عدة قرون يتضاعفون ، وهم في كل عام يقطعون الغابات ويجففون المستنقعات ، ويقتلون الوحوش البرية ، وينشئون بلاداً أكرانيا . وانتشروا فوق السهول بفضل حركة من الإخصاب البشري لا يضارعهم فيها إلا الهنود والصينيون . ولقد كان هؤلاء الأقوام طوال التاريخ المعروف لا يقر لهم قرار - يهاجرون إلى بلاد القفقاس وتركستان ، وإلى أقاليم أورال وسيبيريا ، ولا تزال

عملية الاستعمار هذه في مجراها في هذه الأيام ؛ ولا يزال البحر الصقلي العجاج يدخل كل عام في خلجان عنصرية جديدة .

وأقبلت على العالم الصقلي في بداية القرن التاسع غارة بدت وقتئذ أنها لا يؤبه بها . ذلك أن أهل الشمال الإسكنديناويين كان في وسعهم أن يوفروا بعض الرجال وبعض النشاط يقتطعونهما من هجراتهم على اسكتلندة ، وأيسلندة ، وأيرلندة ، وإنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، وأسبانيا ؛ وأن يوجهوا إلى روسيا الشمالية عصابات مؤلفة من مائة أو مائتين من الرجال ، ينهبون بها الجماعات الضاربة حول البحر البلطي ، والفنلنديين ، والصقالبة ، ثم يعودون بجر الحقائب بالغنائم . وشاء هؤلاء الفيرنج چار Vaerinjar أو الفرنجيون Varangians (« أتباع » الزعيم) أن يحموا تلصصهم بالقانون والنظام فأقاموا مراكز محصنة في طرقهم ، ثم استقروا بالتدريج وكانوا أقلية إسكنديناوية من التجار المسلحين بين زراع خاضعين لهم . واستأجرتهم بعض المدن ليكونوا حماة للأمن والنظام الاجتماعي . ويبدو أن أولئك الحراس قد أحالوا أجورهم جزية ، وأضحوا سادة من استخدموهم^(٣٨) ؛ ولم يكذ ينتصف القرن التاسع حتى أضحوا هم حكام نفجورود « الحصن الحديد » ، وبسطوا ماكهم حتى وصلوا إلى كيف في الجنوب . وارتبطت الطرق والمحلات التي كانوا يسيطرون عليها برباط غير وثيق فتألفت منها دولة تجارية وسياسية ، سميت روس Ros أو Rus وهي كلمة لا يزال اشتقاقها شاراً للجدل الشديد . وربطت الأنهار العظيمة التي تتحرق البلاد البحرين الأبيض في الشمال والأسود في الجنوب بالقنوات والطرق البرية القصيرة ، وأغرقت الفرنجيين بأن يوسعوا تجارتهم ويبسطوا سلطانهم نحو الجنوب . وسرعان ما أخذ هؤلاء التجار المحاربون البواسل يبيعون بضائعهم أو خدماتهم في القسطنطينية نفسها . ثم حدث ما يناقض هذا ، حدث أنه لما أضحى التجارة على أهدار الدينير ، والفلخوف Volkhov ، ودوينا الغربي أكثر انتظاماً مما كانت قبل ، أقبل

التجار المسلمون من بغداد وبيزنطية ، وأخذوا يستبدلون الفراء ، والكهرمان ، وعسل النحل ، وشمعه ، والرقيق ، بالتوابل ، والخمور ، والحرير ، والجواهر ، وهذا منشأ ما نجده من النقود الإسلامية والبيزنطية الكثيرة العدد على ضفاف تلك الأنهار وفي اسكنديناوة نفسها . ولما حالت سيطرة المسلمين على البحر المتوسط الشرقي دون وصول الحاصلات الأوربية مجتازة المسالك الفرنسية والإيطالية إلى ثغور البلاد الواقعة في شرق هذا البحر ، وازدهرت في مقابل هذا في روسيا مدائن نفجورود ، واسمولنسك Smolensk ، وشرنيجوف Shernigov ، وكيف ، ورستوف Rostov بفضل التجارة الاسكنديناوية ، والصقلية ، والإسلامية ، والبيزنطية .

ونخلع السجل القريمى الروسى (القرن الثانى عشر) على هذا التسرب الاسكنديناوى شخصية تاريخية بقصته عن « الأمراء الثلاثة » : ونخلصها أن السكان الفنلنديين والصقالبة في نفجورود وما حولها أخذوا يتقاتون فيما بينهم بعد أن طردوا سادتهم الفرنجيين ، وبلغ من هذا التناحر أن دعوا الفرنجيين أن يرسلوا لهم حاكماً أو قائداً (٨٦٢) ، فجاءهم ، كما تروى القصة ، ثلاثة إخوة - روريك Rurik ، وسنيوس Sinues ، وتروفور Truvor - وأنشأوا الدولة الروسية . وقد تكون هذه القصة صادقة رغم تشكك المتأخرين فيها ، وقد تكون طلاء وطنياً لفتح نفجورود على يد الاسكنديناوين . ويضيف السجل بعد ذلك أن روريك أرسل اثنين من أعوانه هما أسكولد Ascold ودير Dir ليستوليا على القسطنطينية ، وأن هذين الشماليين وقفوا في طريقهما ليستوليا على كيف ، ثم أعلنوا استقلالهما عن روريك والخزر جميعاً .

وبلغت كيف في عام ٨٦٠ من القوة مبلغاً أمكنها أن تسير عمارة بحرية من ألف سفينة تهاجم القسطنطينية ؛ وأخفقت الحملة في مهمتها ، ولكن كيف بقيت كما كانت مركزاً لروسيا التجارى والسياسى ، وجمعت تحت سلطانها بلاداً

واسعة ممتدة خلفها . وفي وسعنا أن نقول بحق إن حكامها الأولين -
أسكولد Ascoled ، وأولج Oleg ، وإيجور Igor لاروريك حاكم
نفجورود - هم الذين أنشأوا الدولة الروسية . ووسع أولج ، وإيجور ،
وألجا Oelga - الأميرة القديرة أرملة أولج - وابنها المحارب اسفياتسلاف
Sivatoslav (٩٦٢ - ٩٧٢) مملكة كيف حتى انضوت تحت لوأها
القبائل الصقلبية كلها تقريباً ، ومدائن پولوتسك Polotsk ، واسمولنسك ،
وشرنجوف ، ورستوف . وحاولت الإمارة الناشئة بين عامي ٨٦٠ ، ١٠٤٣
ست مرات أن تستولى على القسطنطينية . إلا ما أقدم زحف الروس
على البسفور ، وتعطش الروس إلى مخرج أمين إلى البحر المتوسط .
واعتنقت روس ، كما سميت الإمارة الجديدة نفسها ، تحت حكم
قلديمير الخامس (٩٧٢ - ١٠١٥) « دوق كيف الأكبر » ، الدين
المسيحي (٩٨٩) . وتزوج فلاديمير أخت الإمبراطور باسيل الثاني ،
وظلت روسيا من ذلك الوقت إلى عام ١٩١٧ ابنة للدولة البيزنطية في
دينها ، وحرورها الهجائية ، وعملتها ، وفنها . وشرح القساوسة اليونان
لقلاديمير منشأ الملوك وحقهم الإلهيين ، وما لهذه العقيدة من نفع في تثبيت
النظام الاجتماعي واستقرار الملكية المطلقة^(٣٩) . وبلغت دولة كيف أوج
عزها في عهد يروسلاف Yaroslav (١٠٣٦ - ١٠٥٤) بن قلاديمير ،
واعترفت بسلطانها اعترافاً غير أكيد كل البلاد الممتدة من بحيرة
لدوجا Ladoga والبحر البلطي إلى بحر قزوين ، وجبال القفقاس ،
والبحر الأسود ، وكانت الضرائب تجبي إليها من هذه البلاد . وامتصت
في جسمها الغزاة الاسكنديناويين وغلب على هؤلاء الدم الصقلبي واللغة
الصقلبية . وكان نظامها الاجتماعي أرستقراطياً صريحاً ، فكان الأمراء
يعهدون بمهام الإدارة والدفاع إلى طبقة عليا من النبلاء ، وطائفة
أخرى مثلهم ولكنها أقل منهم مقاماً يعرفون بالديتسكي dietski
أو الأوتروكي Otroki أي الخدم أو الأتباع . وبلى هؤلاء في المنزلة طبقة

التجار ، وأهل المدن ، ثم الزراع نصف العبيد ، ثم العبيد أنفسهم . وأقر
كتاب القانون المعروف باسم الرسكايا پرافدا Raskaya Pravda أو الحق
الروسي ، الثأر الشخصي والمبارزة القانونية ، وتبرئة المتهم بناء على أيمان
الشهود ؛ ولكنه أوجد نظام المحاكمة على أيدي اثني عشر محلفين من
المواطنين (٤٠) . وأنشأ فلاديمير مدرسة للأولاد في كيف ، وأنشأ باروسلاف
مدرسة أخرى في نفجورود . وكانت كيف وهي ملتقى السفن النهرية الآتية من
أنهار يلخوف ، ودقينا ، ودنيير الأدنى تجبي الضرائب على جميع المتاجر المارة
بها ، وسرعان ما بلغت من الثراء درجة أمكنها من أن تشيد أربعائة كنيسة ،
وكتدرائية كبيرة - تضارع أياصوفيا - على الطراز البيزنطي . وجرى
بالمقننين اليونان ليزينوا هذه المباني بالفسيفساء ، والمظلمات وغيرها من
ضروب الزينة البيزنطية ؛ ودخلت فيها الموسيقى اليونانية لتمهد السبيل إلى نصره
الأغاني الروسية الجماعية . وأخذت روسيا ترفع نفسها على مهل من غمار
الأوحال والتراب ، وتبنى القصور لأمراتها ، وتقيم القباب فوق أكواخ
الطين ، وتستعين بقوة أبنائها وجلدهم على بناء جزائر صغرى من الحضارة
في بحر لم يخرج بعد من ظلمات الهمجية .